اقرأ

محمد عوض محمد

سُومِي

دار المعارف بمصر

سِنُوحي

قصة مصرية

محمد عوض محمد

سِنُوحي

اقرأ

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٢ – الطبعة الثانية ١٩٥٥



سنوحى

١

أنا سنوحى بن سنوحى ، أمير الدولة ، ووزير الملك ، ومدير ممتلكات العرش فى آسيا ؛ إلى غير هذا من الألقاب الباهرة ، التى لا أريد أن أثبتها كلها ، لكيلا أضيع الوقت والمداد فيما لا غناء فيه .

إننى لم أكن — فى أى وقت من حياتى — مغرماً بالألقاب الفارغة ؛ بتلك الألفاظ الجوفاء ، التى ترن كالطبل ، فإذا فتشتها لم تصب فيها شيئاً . وعندى أن لقباً صغيراً ، يجر وراءه ضيعة صغيرة بمزارعها وحدائقها ، وماشيتها ودواجنها ، وغابها وصيدها وبركتها وأسماكها ، أفضل وأجدى من ألقاب فخمة ضخمة ، توقع بصاحبها غرماً ، وتحمله هماً ، ويضيع وسطها اسمه الصحيح ، ووظيفته فى الدولة .

أنا إذن — سنوحى ! وحسبى أن يذكرنى الناس بهذا الاسم ، دون أن يضيفوا إليه شيئاً آخر .

والذى أخشاه أن كثيرين سيضيفون إليه — إذا خلا بعضهم إلى بعض — ألقاباً وسِباباً، وعَبَثاً مستطابا، وهذا أمر لا مناص منه . وإلا فما فائدتنا — نحن الطبقة الحاكمة — إذا لم تجد الطبقات المحكومة فينا مكاناً للتسلية والدعابة ؟

وبعد : فإنى اليوم أتفيأ ظلال الوطن العزيز ، وقد ألقيت العصا واستقرت بى النوى ، بعد أن طوفت فى الآفاق ، وسعيت وراء الشمس ، أتبعها إلى مغربها تارة ، وإلى مشرقها تارة أخرى. وقد أتاح لى كرم الإله المحبوب سينوسرت أن أرجع إلى الوطن . وأن أنزل فى رحاب قصره العظيم ، ورأى جلالته أن يوفر لى أسباب الرخاء، فخصص لى جراية قدرها ألف رغيف ، ومائة جرة من الجعة ، ومائة حزمة من الكراث ، ذى اللحية الكثة ، وثور أكحل الطرف أسيل الخد . . .

وأريد — وقد أتيح لى هذا الرخاء والهدوء — أن أجلس القرفصاء كما يجلس كتابنا ، وأخط على هذه الصحائف سيرة حياتى وأعمالى ، وما قد شهدت أو سمعت ، مما يستحق أن يكتب ويسطر .

ومن الناس من يأبى فضوله إلا أن يسأل : « لماذا تكتب

وتخط سيرتك ، وقد أراحنا الله منك ومن سيرتك » ؟ والرد على هذا السؤال الوجيه أنى لا أريد أن يستريح الناس من سيرتى ، بل أريد أن تصاحبهم هذه السيرة أينما ذهبوا ، وأن تطالعهم وجه النهار إذا أصبحوا، وتواجههم وقت المساء إذا أمسَوْا . فإن فينا نحن معشر الكتاب روحاً لا يهدأ ، أو ينغص على تلك الطائفة حياتها فى غدوها ورواحها ، ويقظتها ورقادها .

وفوق هذا ، فإنى حين أكتب هذا الحديث لا أفكر فى أبناء عصرى وحدهم ؛ بل يتجاوزهم بصرى إلى الأجيال التى لم تولد . وإلى الأحفاد الذين أرجو أن يكونوا حريصين على معرفة سير أجدادهم ، لكى يقتفوا آثارهم حيناً ، ولكى يخالفوا تلك الآثار حيناً آخر .

وفى وسعنا — نحن سكان مصر — أن نخاطب الأجيال البعيدة ، بفضل هذا الاختراع الطريف، وهو الكتابة، وقد امتزنا بها على سائر الشعوب البربرية التى تحيط بنا ، واستطعنا بفضلها أن نسجل أعمالنا وأخبارنا ، وما قد يخطر لنا من فكر ، وما يعرض لنا من رأى. . . .

وليس هذا كله مما يستحق التسجيل والإثبات ؛ بل الكثير

منه خليق بأن يمُحى ، وبأن يستر بحيث لا تقع عليه العيون . . .
ولقد طالما أتعب كتابنا أنفسهم . فى تسجيل الآراء التافهة ، والأفكار الفجة . ثم بالغوا فى تحسين الخط ، وتزويق السطور وإبداع النقوش ؛ فإذا تفاهة تلك الآراء تتغلب على كل نقش وتزويق ، وإذا الأفكار الفاترة ، لا يجدي معها تجويد الخط ولا إبداع النقش .

ولكنى يخيل لى أن الزمان كفيل بإبقاء الصالح ، واستئصال التافه ، ومع هذا فإنى يحق لى أن أتساءل : لماذا نستر عن أحفادنا تفاهة أجدادهم ، ولماذا نخدعهم عن حقيقتنا . ولهم الحق كل الحق أن يعرفوا أن السخف ليس بالشيء المقصور على عصر من العصور ، وأن للسلف الصالح منه نصيباً ليس بالضئيل .

والآن لا بد لى أن أبادر بسرد هذا الحديث ، الذى أقص فيه قصة العصر الذى عشت فيه . وأريد أن أؤكد لمن يطلع على هذه الصفحات أنى سأبذل جهداً عنيفاً كيلا أحيد عن الحقيقة ما استطعت إلى ذلك سبيلا ، إن أصحابى قد أفرطوا فى اتهامى بأن الصدق ليس من أخص صفاتى . يقولون هذا مازحين تارة ، ومازجين الهزل بالجد تارة أخرى . حتى اشتهرت بين الناس بأنى

أوثر القصة المتقنة على الحقيقة الناصعة . ولا شك أن فى عشرة الأصدقاء مجالا للخيال وللدعابة ، تكون الحقيقة فيه أمراً غير مستساغ ، أما اليوم فإنى أقص قصة عصر ، وأسطر حوادث عهد ، ولا بد لى أن أحرص على ألا يزل القلم أو يجمح الخيال كثيرا .

أبدأ حديثى بذكر والدى سنوحى الكبير ، أرجو أن ترعاه الآلهة برحمتها ، وتشمله بعنايتها ، وعسى أن تكون قد تجاوزت عن زلاته برغم كثرتها وضخامتها ؛ لأنى أعتمد عليه — وهو اليوم يجرى مع الشمس فى السماء — أن يكون واسطة لى عندها ، أبتغى به الوسيلة إليها ، ومع ذلك فقد تكرم الإله المحبوب سيوسرت فغفر لى ذنوبى كلها : ما تقدم منها وما تأخر ، وما ظهر منها وما بطن . ولهذا فإنى إلى حد بعيد مستريح الخاطر هادئ البال .

كان سنوحى الكبير من رجال طيبة الكرام ، ومن نبلائها العظام ؛ ولكنه كان يمشى فى مناكبها ، لا حول له ولا نفوذ ، بعد أن جردت الأسرة من ضياعها ، ولم يترك لها من مصادر الرزق سوى ما تسد به الرمق . ولو أن رمق أسرة سنوحى من الضخامة ، بحيث يحتاج سده إلى مقدار غير قليل من الطعام والشراب . ومهما يكن من الأمر ، فلقد كان سنوحى الأكبر

ساخطاً أشد السخط على الفوضى السائدة فى عصره ، وهى التى أنزلته من قمة اليسار إلى سفحه . وأرغمته على أن يلزم التقتير والتدبير ، وهو الذى نشأ وسط النعيم الكثير .

وفى مذكراته التى أوصانى بحفظها يقول : « إن شر الدواب فى هذا العالم النبيل الشريف ، الذى أخنى الدهر عليه ، وسلبه أسباب نعمته ، وهى الدعائم التى بنى عليها نبله وشرفه . هذه هى الحقيقة حلوة كانت أو مرة . . . فلا تحسبن يا سنوحى الصغير أن النبل والشرف خلق يورث ، أو طبع يمتاز به أناس على أناس . ولا هو دم زكى يجرى فى عروق دون عروق ؛ بل الشرف فى كل عصر وفى كل بلد يتألف من أرض ومن طين ، ومن بقرٍ وغنم وحمير ، وما يتبع ذلك من مواد وغلات وبيوت ومنشآت ، ولقد نظرت عندما عمت الفوضى ، واختل كل شىء فى القطر ، إلى من حولى ؛ وجعلت أزن رجال عصرى ، فوجدتهم خفافاً ضعافا ؛ صغار الأحلام لا يستطيعون النهوض بعبء ، ولا إصابة هدف بعيد . آمالهم محدودة ، وشوطهم قصير . وإدراكهم لا يتجاوز اليوم الذى يعيشون فيه ، وبصرهم لا ينفذ إلى ما وراء البقعة التى يحيون فيها .

« ثم تأملت فيهم وأطلت التأمل . فلم أجد بينهم سوى رجل واحد ، طويل الباع ، بعيد الهمة ، جريء لا يعرف الهيبة ولا التردد .. أعجبني منه أنه يسعى إلى غرضه فى وضح النهار ، ولا يحاول أن يستر الغرض الذى يرومه . لأنه قوى ، ولأنه يجرى على سنة العدل . وبغيته الأولى أن يرى بلاده يسودها الرضى والرخاء . »

هذا ما خطته يد الوالد العزيز . وأنا فى غنى عن أن أذكر للقارئ أن هذا الرجل العظيم ، الذى يسبّح بحمده هو أمنمحت الأول . وسأتحدث عنه بعد قليل بما فيه الشفاءَ والغناء . ولكنى أشك كثيراً فى أن سنوحى الأكبر — عند ما التف هو وأقرانه حول الأمير الناشئ — كان يعرف فيه كل هذا الخلق المتين والمزايا المدهشة . بل إن التفافه حول الأمير كان لا يخلو من شبهة المقامرة . فلقد كانت المقامرة من صميم طبع أبى . وكم من مرة سمعته يخاطبنى ، وقد أسند ظهره إلى جميزة ضخمة فيقول : « قامر يا سنوحى الصغير قامر ! من لم يقامر فى الحياة اضطر لأن يقنع بالقشور دون اللباب ، وبالورق دون الثمر ، وبالأكواخ دون القصور . انظر إلىّ كيف قامرت بكل شىء حينما اتبعت « أمينى » ونصرته وأيدته ، فلما فاز واستقام له الأمر غمرنى بهذه

الخيرات التي ترتع اليوم فى ظلها » .

كان أبى لا يدعو الملك المحبوب إلا بلقب المودة « أمينى » ولا شك فى أنه قد جنى خيراً عظيماً من تأييده للأمير. ولكنه ينسى ، حين يقص علىّ هذه القصة المرة بعد المرة ، أنه فى حقيقة الأمر لم يقامر بالشىء الكثير ؛ كان أمامه ربح عظيم ذات اليمين ، وخسارة تافهة ذات اليسار . فلما رجحت كفة الأمير ، وارتفعت بذلك منزلة سنوحى الكبير ، وَقَرَّ فى نفسه أن هذا الفوز مرجعه إلى صدق فراسته ، وسداد رأيه ، ونفاذ بصره ، وصفاء بصيرته. وليس ببعيد أن يكون أبى على شىء من الصواب.

كانت المقامرة فى عرف والدى عبارة عن لعبة سياسية يلعبها من يطمع فى الرقى والتقدم والضياع والماشية . وهى لعبة لاتجوز فى كل عصر وفى كل عهد . ولكن لا شك فى أن عصر أبى كان من أصلح العصور لممارستها . وتشتمل هذه اللعبة على أن يزن المرء ، بإمعان شديد ، وتدبير حازم ، وتقدير لا يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وبميزان دقيق إلى أبعد حدود الدقة ، جميع رجال العصر الطامعين فى السيادة العليا ؛ وذلك فى عهود الانقسام واضطراب الأمور . يزن المقامرُ إذن كل

مرشح ، ويقدر احتمال فوزه أدق التقدير . حتى إذا وضح له الأمر ، وانجلت سحب الشك ، وخيل له أن زعيماً من الزعماء سيكتب له الفوز لا محالة ، بادر بالانضواء تحت لوائه ، والالتصاق به والتعصب له ، وبذل كل مجهود لنصرته وتأييده.

وفى زعم أبى أن المقامر البارع فى هذا الميدان لا يمكن أن يخسر . وقد نظر إلىّ مرة نظرة طويلة عميقة ، وهو مستند إلى نفس شجرة الجميز . وقال : « إنى لا شك يا سنوحى فى أن مثلك يحسن المقامرة ، إن الذكاء لا ينقصك . فقد ضمنت منه نصيباً وافراً يوم تقرر أن تكون والدى . فأنت ذكى القلب ، سريع الفهم . ليس فى هذا شك . ولكنى أخشى أنك ممن تحركهم العاطفة ويميلون مع الهوى . فإذا عرض لك أمر ، تريد أن تقطع فيه برأى ، لم تترك عقلك وحده يزن كل اعتبار ، ويقدر كل احتمال . بل أشركت معه ميولك ونزعات قلبك ، فالتبس الأمر عليك وضللت السبيل .

« ومن حسن حظك أنى ضمنت لك مقاماً كريماً ومركزاً ممتازاً ، بخدماتى الجليلة لأميى وسيغفر لك كثيراً من أعمال الطيش والرعونة ، ولكنى ما زلت أرجو أنك لن تفعل ما يتطلب

العفو والمغفرة . »

أظن القارئ قد أخذ يدرك أنني لم أكن شديد الاقتناع بآراء والدي ، مع أني كنت أصغي إليه . باهتمام وتلهف ، لأني كنت أحبه أشد الحب ، وأحب الإنصات لحديثه ، ولكن قلبي كان يبتسم من حكمته العجيبة ، وآرائه الطريفة ، وأكبر ظني أنه هو أيضاً لم يكن يلقى بتلك الآراء عن اقتناع تام . بل عن اقتناع متوسط يخالطه شيء من الشك .

ومع ذلك فإن نبوءته العجيبة بأني سأغلب الهوى على العقل ، وأخلط التفكير بالعاطفة ، قد تحققت ويا للأسف فيما بعد ، وسببت لى هماً غير قليل .

ولابد لى قبل أن أختم هذا الحديث عن والدى العزيز ، أن أذكر للقارئ أنه لم يلبث أن استرد ضياعه جميعاً ، وتولى إدارة المقاطعة الجنوبية ، وأراد منه الملك أميني أن يصاحبه إلى عاصمته الجديدة فى الشمال ، ولكنه آثر أن يظل فى الجنوب واعتذر إلى الملك الإله ، بأن جو الشمال يؤثر فى مفاصله ، وفى فقرات عنقه ، وأن ليس له عنق سواه ، وأن أمه العجوز (وكانت جدتى لا تزال على قيد الحياة) تريد منه أن يظل بجانبها

لكى تحس قربه فى اللحظات الأخيرة من عمرها المديد .

وقال سنوحى الكبير فى مذكراته عن هذا الموضوع : «لم أتردد فى أن أعتذر إلى أمينى — فى لباقة وكياسة — عن تخلفى فى الجنوب ، بعد أن انتقل القصر والحاشية إلى الشمال . وبرغم ما سمعته عن العاصمة الجديدة ، وما فيها من روعة البناء وجمال المتنزهات ، وأسباب اللهو والترف ، فإنى ظللت فى مقاطعتى الجنوبية ، أديرها بحزم يمازجه اللين ، وبعدل تشوبه الرحمة . وطالما زارنى الملك الإله أو نجله « سينو » ، وحاشيتهما ، فى أثناء حملاتهما على « واوات » . أو عودتهما منها . فنعمت بقربهما فترات متقطعة من الزمن ، دون أن أقترب من العاصمة والقصر . وهكذا ظللت إلى آخر لحظة صديقاً مخلصاً وفيًّا للعرش ، مبتعداً عن ذلك المحتشد العظيم الذى تدب فيه عقارب الغيرة والحسد ، وتغشاه سحب النميمة والدسيسة » .

إذن ظل أبى فى الجنوب ، حيث قضى البقية الباقية من عمره ناعماً بما كانت تصبو إليه نفسه من الهدوء . ما بين أسرته وعشيرته ، ولكنه اختارنى من بين سائر إخوتى ، لكى ألتحق بحاشية الملك الإله الطيب « أمينى » ، ولكى أشق طريقى فى

الحياة . فقد كان يزعم أنه يتوسم فىّ استعداداً للمجد، وللمناصب العالية ، ولم أكن أنا أحس فى نفسى شيئاً من هذا ، وعلى كل حال لقد شاءت المقادير أن يقذَف بى فى حومة هذا الميدان العظيم ، وأنا فتى غر لم أكد أتجاوز خمسة وعشرين ربيعاً ، جاهل ، برغم نصائح والدى — أو بسبب هذه النصائح — بتلك التيارات العجيبة التى تضطرب بها الحياة عامة وحياة القصور خاصة.

وهكذا رست بى السفينة فى مستهل أشهر الحصاد ، فى العام العشرين من حكم الإله الطيب أمنمحت باعث مصر وموحدها ، ومؤسس نهضتها الجديدة . أقول رست بى سفينتى على الشاطئ أمام العاصمة الجديدة إثْتُوى : قاهرة القطرين ، حيث لم ألبث فى ذلك العام أن ألحقت بحاشية الأمير « آنى » ؛ ثم نقلت بعد زمن وجيز إلى حاشية الابن الأكبر سينو ولى العهد .

٢

لقد زعم والدى العزيز أن الملك المحبوب أمينى تردد قبل أن يقرر تغيير حاضرة ملكه . فإن طيبة هى بلدته التى أنشأته وغذته ، وفيها قومه وعشيرته الأقربون ، ومنها انتشر سلطانه ، وحلق

نجمه ؛ فهل ينتقل عنها إلى أرض لم ينشأ فيها ، بين قوم امتزج حبهم له بالرهبة والخوف من سلطانه . ؟

على أن هذا التردد لم يلبث أن زال . فقد كان من البديهى أن الذى يحكم مصر يجب أن يقيم فى قلب الوادي ؛ فى مصر الوسطى . وقد أصبح الجنوب آمناً هادئاً ، يدير مقاطعته أمناء مخلصون ، ورجال لا يتطرق إليهم الشك . والأخطار التى تهدد البلاد من آسيا وليبيا أجل وأعظم من خطر الواوات على الحدود الجنوبية ، وللملك فى إخلاص سكان الجنوب ثقة لا تتزعزع . أما سكان الشمال فربما كانوا بعد فى حاجة لأن يشعرهم قربه ، وأن يُشْرِبَهم حبه . ولذلك بادر إلى مصاهرتهم والتودد إليهم . واتخذ منهم وزراء وحجابا .

ثم أنشأ حاضرة ملكه الجديدة فى الشمال ، وسماها ، « قاهرة القطرين ، » واست فى حاجة لأن أذكر القارىء بأنها سميت قاهرة القطرين » إبقاء على تلك الخرافة القديمة التى تقسم القطر إلى صعيد ودلتا . وقد مضت القرون منذ كان هذا الانقسام حقيقة ماثلة ، وكان القطر يتألف من مملكتين : واحدة فى الشمال وأخرى فى الجنوب . وبرغم زوال ذلك العهد واتحاد القطر كله

لا نزال نبقى على هذه الخرافة ، ونحتفظ بشارات المملكتين ، وبتاجى المملكتين . لكى نتيح فرصة للملوك بأن يلبسوا تاج الشمال تارة ، وتاج الجنوب تارة أخرى . وأحياناً يحاول الواحد منهم أن يلبس شيئاً عجيباً يمثل مزيجاً من التاجين .

كذلك تتيح هذه الحالة فرصة ثمينة للشعراء أن ينشدوا بين أيدى الملوك قصائدهم مشيرين إلى التاجين والعرشين :

يا جامع العرشين فى واحد ولابس التاجين فى المحفل !

ومع أن لبس التاجين فى وقت واحد أمر لا يحتمله الرأس عادة . فإن من الممكن أن نستثنى رأس أمنمحت الأول . فقد كان رأساً فخماً ضخماً . قائماً على عنق متين ، فوق جسد جبار .

ولأعد إلى ذكر عاصمة « القطرين » . فأقول إنه لابد لى من الاعتراف بأنى قد بهرنى تنسيقها ، وسحرتنى روعة منشآتها . التى جمعت بين جمال الصناعة ، ومتانة البناء. ومن عادة أمنمحت أن يفخر بأنه قد بنى. قصوراً تقارع الدهر وأحداثه . وهذا الفخر وإن لم يكن دقيقاً كل الدقة . فإن من السهل أن نغفر للملك الذى من صنعه القصر العظيم « ذو البابين » ما شاء من الإسراف فى العجب والافتخار .

سمى القصر بذى « البابين » . لأن له بابين متجاورين أحدهما للدخول والآخر للخروج. وكلاهما آية فى جمال التنسيق، وروعة البناء . ولقد ترددت على القصر كأنى أحد سكانه ، بضعة أعوام ، فألفت منظره ومنظر حجراته وأعمدته وحدائقه وأفنيته ، ولكن منظر « البابين » لم يفقد روعته عندى على مضى السنين . وحينما حكمت على ظروف الحياة بالاغتراب ، وقضيت السنين الطوال فى أرض « الرطين » كان الشوق يمثل لعينى صوراً من الوطن ، أتأملها وأنا بين الحلم واليقظة . فكان أكثر هذه الصور تردداً أمام عينى صورة البابين والتماثيل المحيطة بهما.

أما القصر الذى بناه أمنمحت لكى يقارع به الدهر، فهو عبارة عن بناءٍ عظيم وجهه إلى الغرب ، وظهره على النيل إلى الشرق ، بينه وبين النيل مسافة مائتى ذراع ، قد انبسط فيها النبت، وحلق فيها الدوح، وهكذا كانت للقصر حديقتان ، واحدة للأمام من الناحية الغربية ، حيث البابان العظيمان ، والأخرى من خلف ، بين القصر والنيل ، ومن الممكن بالطبع أن يدخل المرء القصر من ناحية النيل بواسطة أبواب خلفية ، ولكن هذا الحق كان مقصوراً على الأسرة الملكية ، وعدد قليل

من المقربين من الملك وأهله ، أو وزير الدولة الذى يقوم على خدمة الحريم .

أما جميع الناس ، ورجال القصر أنفسهم ، بل وجلالة الملك نفسه إذا خرج لشأن من شئون الدولة ، فإنه يخرج من «البابين» من الناحية الغربية ، فى موكب عظيم من الجند والحشم .

يشتمل القصر الملكى على ثلاثة أجزاء : قلب وجناحين كأنه أنشئ فى صورة النسر الذى بسط جناحيه إلى أقصى امتدادهما . فأما القلب فهو الديوان الملكى ، تدنو إليه وسط أساطين وعمد عالية تمثل صورة النخيل ، وقد نجتت من الحجر الصقيل . وفى نهايتها تصعد الدرج إلى ردهة القصر حيث الحرس قيام بالليل والنهار ، وعن اليمين والشمال حجرات جلس فيها رجال الديوان يتلقون الرسائل ويدبرون شئون المملكة .

وفى صدر الردهة حجرة عظيمة ، قد زينت بالذهب ، ونقشت جدرانها بالميناء . وهنا يجد المرء حجّاب الملك ورجال حاشيته المقربين . ومن ورائها حجرة العرش ، وهى من الروعة والجمال بحيث يعجز عنها الوصف . ويتوسطها العرش الملكى . حيث يجلس الإله المحبوب فى الصباح الباكر ، وفى المساء ،

يدبر الملك ، ويملى الرسائل ، ويوجه الرسل ، ويستقبل الأمراء والأشراف ، وحكام المقاطعات ، ويزودهم بأوامره ، وينفث فيهم من روحه ، ويسأل كلا منهم عن شئون رعيته ، وهل أقام فيها العدل ، ورفع عنها الجور ، ووفر لها القوت . وهل ينفذ ما يأمر به الملك ، من رفع الضرائب أو تخفيفها ، أم يجمعها ويودعها فى خزائنه الخاصة .

لقد كان أمنمحت يسأل كل حاكم عن عمله ، وهو على علم تام بالذى يسأل فيه ، فلا يزال يجادل الوالى ويستجوبه حتى يوشك أن يدركه الإغماء ، ولا يخرج المسكين من بين يديه إلا وقد نقص وزنه عدة أرطال . .

وإلى جانب الملك وزيره الأول « هامان » وساعده الأيمن ، ولكنه كان يقف صامتاً مطرقاً ، حتى يسأله الملك عن أمر فيرد بأدق وأبلغ ما يمكن أن يرد به .

هذه الحجرة التى لا تزيد على بضع عشرة ذراعاً فى الطول والعرض ، هى قلب الدولة النابض ، الذى يبعث القوة والحياة فى أركانها وأرجائها . وفى طرفيها بابان عن اليمين وعن الشمال يفضيان إلى جناحى القصر ، حيث تقيم الملكة والأنجال

والجواري وسائر أفراد الأسرة المالكة ، وما يلحق بهم من خدم وأتباع وجزار وعبيده .

ذلك هو القصر ذو البابين ، الذى طبق صيته الآفاق ، وهو بمثابة الواسطة الكبري من العقد الذى انتثرت حباته ذات اليمين وذات الشمال من قصور صغيرة وكبيرة ، مربعة ومستطيلة ومستديرة . بعضها قريب من القصر الملكى ، والبعض أقل قرباً منه . ويسكنها جميعاً رجال الدولة ، وأسرهم العديدة ، باركت الآلهة فيهم وسددت خطاهم .

والآن أرانى قد وصلت إلى ذلك المكان من قصتى الذى لا بد لى أن أتحدث فيه عن « أمينى » العظيم نفسه . والكلام عن أمينى ليس بالشيء السهل ، فقد امتزجت الحقيقة فى أخباره بالخيال ، والإسراف بالاعتدال ، وعلى قرب عهدنا به قد أحيط اسمه بألوان من الخرافات والمعجزات ، حتى ليوشك الخبير أن يضل وهو يبحث عن التبر الصريح وسط أكداس من التراب . ومن عادة النفس أن تعشق الإسراف وتهواه ، لأن الحقيقة المجردة لا تشفى الغليل ، ولا تروى الظمأ . وأكبر ظنى أن الملك نفسه كان يشجع الناس على أن ترى فيه كائناً فوق كل كائن ،

وأن تنسب إليه المعجزات التى تحير الألباب . وكان غرامه بالمدح والتمجيد يغريه بأن يغض النظر عن الغلو الشنيع الذى امتلأت به قصائد الشعراء . وتتداول العامة تلك المنظومات البديعة ، فيخيل إلى عقولهم الساذجة أن ما فيها هو الحق الصريح الذى لا يخالطه مين ولا غلو .

ومع ذلك فليس من الصعب لمن يفند الأقوال أن يستبعد كثيراً من هذا الإسراف . فلقد طال مدح الشعراء للملك بأنه يعلم الغيب ، ويعرف المستقبل ، حتى كاد هذا الأمر أن يكون من الأمور الثابتة التى لا تقبل الجدل . وفى وسط هذا الضلال المنتشر ، ما على المرء إلا أن يذكر أن الملك لو كان يعلم الغيب لما داهمه المتآمرون ، وهو راقد فى قصره ، وليس حوله من الأتباع إلا القليل ، ولو كان « أمينى » يعلم الغيب لما أسرف فى إساءة الظن بكثير من ولاته المخلصين الذين لم يقترفوا إثماً ، ولم تخطر الخيانة فى فؤادهم .

وبعد . فإن « أمنمحت » بعد أن تجرده من كل غلو وإسراف ، وتنتزع سيرته من بين الخرافات والأقاصيص ، يظل بعد هذا كله عظيماً لا يدانيه فى عظمته أحد ، صانع

للمعجزات ، وإن لم تكن من تلك المعجزات السخيفة التي يلهج بها الشعراء . وهل أبلغ في العظمة من أن ينشأ إنسان وسط الفوضى التي تشمل القطر من أطرافه . وقد اغتالت أرض الوطن غول الفتنة من الداخل ، وغول العدوان من الخارج ، والولاة جميعاً في تطاحن وتشاحن ، يعتدي بعضهم على بعض ، ويجور الجار على الجار ، وقد تقهقر الحق في كل مكان أمام القوة الغاشمة ، وتمزقت البلاد أسوأ تمزيق .

وفي وسط هذه الكوارث ينهض شاب يوشك ألا يعرفه خارج بلدته أحد ، فيجمع حوله عصابة من الرفقاء ، فينتزع الحكم من أيدي ولاة طيبة ؛ في مثل لمحة الطرف ، ثم لا تمضي بضعة أشهر ، حتى يكون القطر كله خاضعاً لحكم عادل يسوده الأمن والسلم . ولا يقف الأمر عند هذا بل نرى الأعداء من آسيا قد نكصوا على أعقابهم ، وشعب « الطحين » في ليبيا يرسل الهدايا ويبدي المودة . والواوات في الجنوب يقسمون أنهم ما عرفوا غير الولاء لمصر ، والحب المفرط لملكها الشاب ، وأنهم مستعدون لأن يسفكوا دماءهم فداء له ودفاعاً عن عرشه .

ولقد كانت مصر دائماً مقسمة إلى مقاطعات ، حدودها

معروفة مقدسة . لا يعتدى حاكم على أرض جاره ، ولا يبدل من تلك الحدود قيد أنملة . فزالت معالم هذه الحدود فى عهد الفوضى ، حين كانت القوة وحدها هى التى تقرر اتساع كل إقليم ومقاطعة . ومن أجل أعمال « أمنمحت » — وهو أول أمر نهض به بعد استتباب الأمن — أن تولى بنفسه إعادة الحدود بين المقاطعات إلى ما كانت عليه، وثبتها تثبيتاً لا يقبل التغيير والتبديل ، وجازي المحسن على إحسانه ؛ وأما الذين أساءوا واعتدوا ، فقد جازاهم بقدر جرمهم .

ولم تقف جهوده عند هذا ، بل تجاوزته إلى تشييد عاصمة تجمع بين الجمال والجلال ، وإلى نشر الرخاء فى أنحاء الدولة، بل وإلى تشجيع الآداب والفنون . .

إن من السهل على إنسان ورث ملكاً ثابت الدعائم ،راسخ القواعد ، وشعباً متحداً خاضعاً مطيعاً ، ودولة منظمة وخداماً مخلصين ، أن يكون ملكاً عظيما ، وأن يحكم حكماً سعيداً ؛ من السهل على خوفو ، وأمثال خوفو أن يشيدوا الأهرام ، ويجمعوا المال من جميع الأقطار ، ويرسلوا البعثات إلى البلاد البعيدة . ما داموا قد ورثوا ملكا مستقراً تعب فى تشييده مثل

صنفرو والذين كانوا من قبله . . وليس من العظمة الضخمة فى شيء أن يسير خوفو سيرة أبيه وجده ، وأن ينسج البرد الذى نصبوا له منواله ، وركبوا فيه خيوطه ، ونظموا لحمته وسداه .

وإنما العظمة التى تفوق كل تقدير أن ينهض إنسان لم يرث من أسلافه غير الفوضى والاختلال والتفكك ؛ فيخلق من وسط هذا كله دولة يسودها الرخاء ويعمها النظام فى الداخل والخارج .

هذه خلاصة الوصف الصحيح لأمنمحت الملك الجبار ، وهى صورة جليلة فى ذاتها ، وليست فى حاجة لما يحيطه بها المداحون والمتملقون من التنميق والتزويق . ولا ينقص من جمال هذه الصورة أن يقول إنسان إن البلاد قبله كانت قد سئمت الفوضى فلم تكد أن تجد هذا القبس من الضياء حتى التفت حوله ، وبذلت له كل معونة فأتاحت له هذا النجاح العظيم . لقد سئمت البلاد الفوضى منذ أجيال عديدة ، ولكنها لم تستطع أن تتخلص منها إلا حينما جاء « أمينى » لإنقاذها .

تلك — إذن — أعمال مليكنا العظيم ، أما الشخص الذى صدرت عنه هذه الأعمال فإنه بطل قد جمع فى جسده وفى روحه صفات البطولة كلها أو جلها . إن كثيراً من الرجال المشهورين

يسرك أن تسمع بهم ويسوءك أن تراهم . ولكن أمنمحت كان يروعك منظره ، كما تسرك أخباره ، فقد كان طويل القامة . قوي الجسد قوة لن تجد لها نظيراً بين معاصريه ، سريع الحركة جداً لا يستطيع أحد أن يعدو كما يعدو ، أو يثب كما يثب . ولقد رأيته بعيني يعدو خلف الوعل وسط جبال الصحراء ، فلا يلبث حتى يعود به حيًّا وله — كما للأبطال العظام في القصص — قوس هائلة قد صنعها بيديه ، وليس بين معاصريه من يستطيع أن يحنيها أو يرسل السهم عنها . ولقد اشتهرت بين لداتي وأقراني بقوة الساق والساعد ، وبالرماية المحكمة ؛ ولقد ناولني الملك قوسه مرة على سبيل الدعابة فما استطعت أن أشد وترها شبراً . فتناولها مني ضاحكاً ، ثم أرسل سهماً في الفضاء وإذا بطائر من الغر يسقط بين أيدينا . وما كنا نرى في الجو شيئاً .

وهذا الحادث يكشف عن ناحية من خلقه لا سبيل إلى إنكارها وهي اعتداده بنفسه ، وتيهه وغروره . وحبه للإطراء وإيمانه بأن رأيه مثل سهمه صائب أبداً . والذي علمته من أبي أن هذه الصفات لم تكن ظاهرة في مسلكه أول الأمر . ولكن اطراد النجاح من غير شك قد أظهر منها ما بطن .

٣

قلت إن أميني كان يحلو له أن يجلس على عرشه ، وسط وزرائه وحاشيته ، ينصت إلى بعض الشعراء، وهو ينشد منظومة طويلة يتناوله فيها بالمدح والتمجيد ، وبالتعظيم والتفخم . وإنى ، مع قلة اكتراثى بطائفة الشعراء ، التى كانت تتردد على القصر فى ذلك الوقت ، لا بد لى أن أستثنى منها، على الأقل، واحداً . لم يكن شاعراً عظيماً فحسب بل صديقاً كريماً، ورجلا كامل الرجولة.

ذلك الرجل هو يونس ، الشاعر الأكبر ، الذى كنت أتلهف شوقاً لرؤيته . وقد أوصانى أبى أن أخطب وده ، وأكتسب صداقته لا لأنه كريم الطبع ، حميل المعاشرة ؛ فهذه صفات لم يكن يعبأ بها أبى . بل لأنه مطلع على أسرار القصر ، عليم بما يجرى بين الجدران . ولا بد من التسليم بأن الوالد كان مصيباً فى هذا الوصف .

كان من حسن حظى أنى عندما مثلت بين يدى الملك وهو فى حجرة عرشه كان يتأهب للإنصات إلى منظومة من شعر يونس ، فسألنى بسرعة عن أبى وعن أسرتى . ثم أمرنى أن أقف

فى جملة الحاشية ، لكى أنصت إلى الشاعر العظيم .

وبعد لحظة دخل يونس ؛ فإذا رجل وسيم الطلعة لا يزال فى مرحلة الشباب ، وأظنه ـــ برغم جلال الموقف ـــ قد لاحظ وجهى الغريب بين الوجوه المألوفة . ثم لم يلبث أن وقف ينشد الملك ، فى صوت يجمع بين العذوبة والقوة ، قصيدة من طراز جديد . لم يشأ أن يمدح الملك العظيم بأن يمطر عليه ألفاظ الثناء العاطر ، بطريق الخطاب المباشر ، فيصفه بأنه قوي وجميل ، وعظيم وجليل ، وأنه علام الغيوب ، والإله المحبوب ، وفعال المعجزات وصاحب الكرامات .

ابتكر طريقة جديدة وهى أنه أخذ يصف لنا بلاط ملك من الملوك الغابرين ، وقد جلس على عرشه وأحاط به وزراؤه وأتباعه ، ثم يجىء رئيس الكهنة فيدلى أمام الملك بنبوءة عظيمة عن ملك من ملوك مصر العظام ، ينقذ البلاد من الفوضى والاضطراب .

وأظنك أيها القارئ تعرف هذه القصيدة . فقد وصف شاعرنا فيها بلاط الملك صنفرو ، وهو من أعظم ملوكنا الأقدمين ! وقد وقف بين يديه فى أدب وخشوع كاهن يسمى الروح الجميل فقال له الملك : حدثنا أيها الكائن حديثاً يسلينا ، ويذهب عنا

الضجر . فيقول الكاهن : أيريد الملك المحبوب أن أحدثه عن العهود الغابرة أم العصور القادمة ؟ فيقول صنفرو : بل حدثنا عن المستقبل وارفع عن الأعين الحجب لكى تنفذ إلى السنين والقرون البعيدة .

هنالك يطرق « الروح الجميل » مليًّا ، وهو يلتمس النور وسط الغياهب ، ثم يتناول قرطاساً وقلما ، ويخط السطور الآتية

« أيها القلب الجريح ! اندب هذه الأرض التى عليها: درجت وفيها كنت تغدو وتروح ! اندب أرض (بسطة) التى عشت فيها ، وعين شمس التى ولدت بها .. اندب هذه الرياض الفيحاء ، يوم تهب عليها ريح السموم ، تحمل أجلاف الأسيويين ؛ فينقضون على كل قرية آمنة فينتزعون أمنها ورخاءها. ويسطون على الفلاح فى مزرعته ، فيختطفون منه ماشيته ، وهو يحرث بها أرضه .

« أيها القلب لا تهدأ ولا تسكن ، بل قم فاندب هذا المنظر المفجع ، الذى يطالعك أينما نظرت . إن البلاد قد شاع فيها الخراب والدمار . كأن العمران لم يقم بها يوماً . وكأن رع لم يخلق فيها شيئاً . بل كأنه لم يبدأ أعماله فيها بعد !

« لقد عم الهلاك الأرض كلها ، فلم يبق فيها شيء قائم . وليس هنالك من يعنى بأمرها ، أو يتحدث ، أو يرثى لها ، حتى الدموع قد جفت فلم يعد أحد يسكب قطرة منها .

« عجباً لهذه الأرض كيف حالت عما عهدناه !

« والشمس كيف احتجبت خلف ستار كثيف من التراب والرماد !

« لقد جف الزرع فأصبح هشيماً تذروه الرياح .

« وتطاير التراب حتى ملأ الفضاء كله . وأرسلت الشمس شعاعها الذهبي ، فحالت دونه حجب التراب والغبار المتطاير فى السماء .

« حدقى يا عين فى المستقبل ، واخترقى حجب الغيب ، لكى أتحدث بوضوح وجلاء عما ستأتى به الأيام !

« نهر مصر العظيم ما خطبه ؟ لقد غاض ماؤه ، وجف مجراه ! فالناس تعبره سعياً على القدم .

« عبثاً يبحثون عن ماء يسيرون فيه سفنهم أو زوارقهم .

« لقد اختلطت الأرض ومجارى الأنهار والقنوات ؛ فلا تعرف أيها النهر ، وأيها الحقل ، وأيها الشاطئ .

« وأقبلت من الجنوب ريح الدبور ، فطاردت ريح الشمال ،

حتى أزالتها من الوجود . طردتها من الأرض ، وطردتها من السماء . فوا أسفى على ريح الشمال ، العليلة المنعشة ، التى تنشر الحياة ، وتبعث القوة .

« والطير قد هربت من الدلتا ، وغادرت أرض المستنقعات ، وهى وطنها الذى تضع فيها بيضها ، وتربى فيه صغارها . اضطرت لأن تنزل فى مساكن الناس ، فأوت إلى غير مأوى ، ولجأت إلى غير مأمن .

« وقد خربت البرك ودمرت البطائح ، التى كانت تصاد فيها الأسماك ، والطيور البرية ، وخربت من حولها الديار التى كانت تجفف فيها وتهيأ ، وتعد لتغذية الناس .

« ضاعت خيرات الأرض ، وحل بها الخوف والجوع ، لكى تمتلىء بطون أولئك البدو الصعاليك ، الذين يجوسون خلال الديار .

« سطا الأسيويون الأجلاف من الشرق على أرض مصر ، وهى آمنة مطمئنة ؛ لا تخشى شراً ، ولا تتوقع أذى . فإذا الويل ينزل بساحتها فجأة ، والعذاب يغشى أولئك الآمنين الوادعين . وإذا منازلهم يسطى عليها إذا جن الليل ، ويختطف ما بهـا ، فكانت العيون لا تعرف للنعاس طعماً ، لأنها تنتظر الويل أن

يحل بها فى أى لحظة .

« لكأنى أرى وحوش الصحراء أولئك ، وقد أكبوا على الأنهار يكرعون ، ويوشك ماؤها أن يغيض تحت أفواههم . . . ثم أراهم بعد ذلك يترامون على الشواطئ ، دون أن يكون هنالك من يدفعهم أو يذودهم .

« شاع الاضطراب فى القري والدساكر ، وتهدمت الحدود بين المقاطعات . وكثر السلب ، وانتشر النهب والعدوان ، واغتصبت الحقول من أصحابها ، واعتدى القوى على حق الضعيف وامتلأت القلوب غيظاً وكمدا . وما يستطيع أحد أن يعرف ما خبئ له فى ثنايا الغيب .

« ألا إنى أرى الأرض الآن ماثلة أمامى تصيح بالويل والثبور ، وتندب أبناءها البررة ؛ لقد أحالهم الشقاء إلى وحوش ضارية . ها هم قد تقلدوا أسلحتهم لكى يكتسبوا قوتهم بالقتال والنضال ، واصطنعوا السهام من النحاس لكى يشتروا خبزهم بدمائهم .

« ولقد ترى أفواههم مفتوحة كأنهم يضحكون ، وما هو إلا ضحك المريض الذى برح به الداء ، وأعوزه الدواء .

« أما الدموع فلم تلبث أن جمدت فى العيون ، والمآقى جفت ، وجل الخطب عن أن يكون الدمع فيه مسعفاً أو مخففا . لقد أصبح الموت نفسه شيئاً مألوفاً . وأينما نظرت أو توجهت ألفيته قائما بين يديك ، يحدق فى وجهك ، ويكشر عن أنيابه المستطيلة الزرقاء .

« والقتل الغادر الخائن ، كامن فى كل ركن وتحت كل حجر ، ووراء كل جدار . وكأنى أرى الصديق يغتال صديقه ، والأخ يفتك بأخيه ، والابن — يا رباه ! — بأبيه . . .

« فظائع لم يعرف القطر لها شبيهاً فى أى زمان !

« ولقد احتشدت البلاد بجموع من الشحاذين فى أسمال بالية ، ووجوه جافة شاحبة ، كأنما انشقت عنهم المقابر . وماذا يشحذون ، وممن يسألون ، وقد أصبح الغنى ذو الجاه فقيراً معدماً . بعد أن سلبوه ماله ومتاعه ، وأعطوها بلحلف من أولئك الأغراب ، النازحين ، وأينما ذهبت ترى صاحب الثروة يتضور جوعاً ، والغريب يعيش وسط النعيم واليسار .

وامتلأت الصدور حقداً وضغناً ، واشتد بالناس الضجر والغيظ المكبوت . حتى ما يطيق إنسان أن يسمع صوتاً ، ولا يحتمل أن توجه إليه كلمة . فلا يكاد اللفظ أن يغادر الشفتين

حتّى تُرفع العصى ، وتستل المدى . وتشتعل الحفائظ .

« ومن العجائب أن ترى الحكام وأولى الأمر قد ازداد عددهم أضعافاً مضاعفة ، بينما تتضاءل الأرض ، وتقل مساحة النزع منها . الحقل فقير النبات ، والضرائب كبيرة ضخمة . الحب قليل ، ولكن مكيال الجباة عظيم . وهم يملأونه حتى يفيض ويطفح .

« حيل بين الناس وبين الشمس المشرقة ، فهى فى عالم وهم فى عالم آخر . وبينهما التراب الكثيف ، تثيره العواصف من الأرض الجافة ، قد زال عنها النبت والشجر ، وما يقدر الناس أن يميزوا ظهراً من عصر لأن الأجسام ليس لها ظل . والأشعة الباهرة لا تقع على جسم . على أن الشمس ما برحت فى جو السماء ، تشرق كما كانت من قبل ، وتجرى فى السماء كما كانت تجري . ولكن دونها كل هذه الطبقات الكثيفة من الغبار والتراب . .

« أجل أيها الملك العادل صنفرو ، إن القطر سيغمره الشقاء من جميع أطرافه . والبلاد يشملها الحزن ، وتضنيها الآلام . وقد ساد الاضطراب ، وعمت الفوضى . . وقد أصبح العزيز ذليلا ، والوضيع كريماً . وطورد الموسرون من قصورهم حتى

اعتصموا بالمقابر. وعينُ شمسٍ وطنى ، ومسقط رأسى قد زايلها العمران ، وباتت قفراً بلقعاً . .

فسبحانك اللهم ! كيف جاز للدمار أن يغتال أرضاً هى مهد الآلهة جميعاً ؟

« ما هذا الذى أراه ؟ إن الغمة تنجلى ، والغبار ينجاب . والشمس تشرق . وهذا ملك عظيم مقبل من الجنوب ، إنه أمينى ، ولدته فى مصر العليا أم من بلاد النوبة .

« إنى لأراه يلبس التاج الأحمر ، ويستلم التاج الأبيض . ثم لايبرح حتى يلبس التاجين ، ويجلس على العرشين . وقد أظله علم الإلهين .

« فانعموا يا بنى عصره بهذه السعادة التى أتيحت لكم ! إن رجلا عظيماً سليل بيت كريم ، قد نقش اسمه فى سجل الخلود . انظروا إلى الشريرين كيف يتوارون عن الأنظار ، وإلى الجبارين المعتدين كيف ذلت أعناقهم ، وخفتت أصواتهم ؛ وإلى الأسيويين الأجلاف كيف يقتلون ويمزقون ! وإلى الليبيين اللؤماء كيف تذهب دورهم وأجسادهم طعاماً للنيران . .

« يا له من ملك عظيم استطاع أن يكر على الأعداء بيمينه :

ويخضع الثوار بيساره . وقد أجلى الأعداء عن أرض الوطن بسطوه وبأسه. وجمع حوله القلوب النافرة بهيبته وعدله . وعلى جبينه اللامع ثعبان الملك . لاتكاد تبصره العيون حتى تستشعر الهيبة والتقوى .

« ولكنه لا يكتفى بقهر الأعداء وتمزيقهم ، بل يقيم فى شرق الدلتا أسواراً وحصوناً ، لكى يرد بها وحوش الصحراء إذا حدثتهم أنفسهم مرة أخرى بأن ينقضوا على هذا البلد الآمن . فانظر إليه كيف يخدم عصره، والعصور التى بعده . فإذا أراد الأسيويون بعد اليوم ماء يسقون به ماشيتهم، فليلتمسوه التماساً ، فى ذلة وخضوع كما كان دأبهم من قبل .

« وهكذا يعود الحق إلى نصابه، ويزهق الباطل ، ويمحى من الأرض . إن الذين يشهدون هذا كله ، ستمتلىء نفوسهم سروراً وغبطة، وسيقبلون على مليكهم العظيم لينالوا شرف خدمته ، والائتمار بأمره .

« ولعلى — فى ذلك الزمن البعيد — أن يذكرنى ولى من الأولياء ، فيلقى على جدثى سجلا من الماء، ويلتمس الرحمة لروحى ، حين يرى أنى ما قلت إلا الحق ، ولم أنطق بغير الصدق» .

* * *

فرغ يونس من إنشاده ، وانحنى راكعاً أمام الملك . فقال له أمينى : « أحسنت يا يونس ، إن هذا شعر جديد مبتكر » .

ـ ما أتيت بشيء من عندى يا صاحب الجلالة ، إنما هذه نبوءة الكاهن ، الروح الجميل ، ما زدت على أن نقلتها عن قرطاس قديم عثرت عليه فى مكتبة قديمة .

قال الملك : دع عنك هذا التلفيق ، وسيكون عطائى جيداً جودة قصيدتك . ما رأيك يا سنوحى الصغير فى هذا الشعر؟ ـ هل سمعت من قبل بقصيدة محبوكة البناء ، رصينة اللفظ ، دقيقة المعنى ، مستقيمة الوزن كهذه القصيدة ؟

فأجبت : إنه لشعر بديع ، وما كنت أتوهم من قبل أن نظم الشعر قد ارتقى ، حتى بلغ هذا الشأو البعيد . ولمولاى الفضل الأكبر فى أن شخصه الكريم ، وأعماله المجيدة ، قد أوحت إلى شعرائنا بمثل هذا الشعر واضطرتهم لأن يحلّقوا فيبلغوا هذا السمو الهائل .

ذلك ما أجبت به الملك على الفور والبديهة . وهكذا ألفيت نفسى مندفعاً إلى مخاطبته بعبارات الملق ، التى كنت أظن أنى أنفر منها . فإذا هى تخرج من بين شفتى من غير تكلف .

وكانت الخطوة الأولى فى تنفيذ وصايا الوالد العزيز .

فنظر إلى الملك وقال : « إنك تحسن الكلام . فلعلك أن تحسن الرماية أيضاً . فى موعد غير بعيد سيعقد حفل عظيم يتبارى فيه الرماة . وهم واقفون على هذا الجانب من النهر . أما الهدف فإنه سيكون فى الضفة الشرقية . هذا أمر لم تسمع به من قبل . فإن الناس من قبلى قلما كانت تصل بسهامها إلى أبعد من مائة ذراع . أما اليوم فلا بد لهم أن يبلغوا بسهامهم خمسمائة ذراع . وسنضحك كثيراً عندما نرى سهامهم تتساقط فى الماء ، فلا تنس أن تعد نفسك لذلك اليوم . فما يجدر بابن سنوحى الكبير أن يقصر فى هذا المضمار ! وكثير منهم سيؤوب من المضمار بذراع يتصبب منها الدم . لأنى لن أسمح لأحد من المتسابقين بأن يلبس وقاء على ذراعه اليسرى .

« إن الرماية يا سنوحى الصغير ، ليست مجرد عمل هين يسير . بل هى صناعة من أجل الصناعات وأدقها ؛ إن كل صعلوك يستطيع أن يرمى سهما عن قوس . وكثير من الرماة يظن أن القوس يجب أن تكون طويلة والوتر رنانا لكى يصيبوا الهدف البعيد . وإنما القوس الباهرة هى القوية فى مرونتها ، التى لا تنحنى

إلا بضغط مركز متصل ؛ فإذا أطلقتها ارتدت فى سرعة البرق الخاطف ، ودفعت بالسهم مئات من الأذرع .

« والآن انطلق أنت أيضاً كالسهم ، والحق بالأمير آنى . فإنه يتوقع رؤيتك » .

ركعت بين يدى جلالة الملك ، عندما ألقى إلى أمره هذا ؛ ثم تراجعت متقهقراً — وأنا أختلس نظرة إلى الشاعر البارع — حتى وصلت إلى خارج الغرفة الملكية . فوجدت على بابها رجلا من حاشية الأمير « آنى » ينتظرنى ، فصاحبته إلى قصر الأمير ، الملاصق للسراي الملكية .

ولا بد لى قبل أن أنتقل إلى حديث آخر أن أذكر القارئ بما جاء فى القصيدة التى أنشدها يونس ، من وصفه الملك بأنه ابن امرأة من النوبة . إن لهذا الأمر شأناً عظيماً فى الحوادث التى ستجتازها مصر بعد قليل . لقد كان أمينى يفخر بأنه ابن نوبية . ولعل السبب فى هذا يرجع إلى عهد نشأته ، وأنه كان يُعَيَّر بأن قد ولدته امرأة من النوبة . فأراد أن يخرس الألسن الشريرة . فجاهر بالفخر بأنه من أبناء الجنوب ، وأن التى ولدته نوبية صميمة .

ومهما يكن من شيء فإن هذه الصلة النوبية قد ثبتت فوق أنفه الملكى الكريم ، إذ أكسبته هذا الفطس اليسير ، الذى نراه فى تماثيله واضحاً كل الوضوح . ولقد أراد المثالون أن يلطفوا من أمر هذا الفطس ، وأن يرتقوا بالأنف الملكي إلى العلياء قليلا . . . فزجرهم « أمينى » أشد زجر ، وأمرهم أن يزيدوا أنفه فطسا ، فإنه بهذا جد فخور .

إن لهذا الأنف والدم النوبى علاقة وثيقة بالحادث الهائل الذى سيحل بالقصر بعد قليل. وسنأتى على ذكر هذا الحادث فى وقته المناسب . ولكنى أردت منذ الآن ألا تفوت القارئ ملاحظة هذه الأمور التى تبدو تافهة فى مظهرها وهى جليلة فى خطرها .

٤

مضيت إلى قصر الأمير « آنى » فلم ألبث طويلا حتى أذن لى بالدخول إلى حجرته الخاصة . كان جالساً هناك على أريكة زرقاء تضاهى بزرقتها لون الخوان الذى بين يديه ، ولون جدران الحجرة ؛ وإلى جانبه زوجه ، ولم أجرؤ أول الأمر على النظر إلى وجهها . ولكنى استرقت النظر إليها فيما بعد ، فألفيتها

بيضاء البشرة فى شعرها صهوبة غريبة ، وفى وجهها شدة وصرامة ، وقد أطبقت شفتاها إطباقاً ينم عن الإرادة ، والعزم النافذ . تقاطيعها مليحة من غير شك ، ولكن ملاحتها كادت أن تخفى حين طغت عليها مظاهر القوة ، التى تنطق بها كل جارحــة من جوارحها .

تلك هى « نورا » التى اختارها الأمير العزيز زوجاً من دون النساء ، بل لعلها هى التى اختارته ، فلم يستطع عنها مصرفا .

أما الأمير فكان البشاشة المجسمة ، وعلى وجهه الأسمر خطوط طويلة ، مستقيمة أو مستديرة ، حول الفم ، والجفون .

ولم أكد أقف بين يديه حتى بادر بتحيتى :

ــ عم صباحا يا سنوحى العزيز ، لقد سمعت من جلالة الملك أطيب الحديث عن أبيك ، ولا أشك فى أنك ستثبت أنك أهل لهذه الأبوة العظيمة . لم يحضر أبوك معك . وقــد كنت أود أن أراه .

ــ إنه يزعم يا مولاى أن شئون الأسرة والزراعة تقيده بسلاسل من نحاس فلا يستطيع عنها انفكاكا .

ــ أحسبه يفضل رعاية البقر السمين والضأن الوديع ،

والماعز ذى القرون الهيفاء ، وأن يخرج إلى البركة ، فيرى آلاف الأوز سابحة فى الماء ، فلا تكاد تراه ، حتى ترفع أعناقها إلى السماء وهى تصيح كلها فى نغمة واحدة ، تحييه بلحنها الشجى ، الخالى من كل تكلف . ثم ينصرف إلى جزء آخر من البركة ، فإذا البط ذو الأصابع المشبكة ، يدفع الماء برجليه ، ويزاحم بعضه بعضا ، لكى يلتقط فتات الخبز ، التى يلقيها إليه سنوحى الكبير .

ثم يترك البركة ، عائداً إلى منزله وسط حقول الحنطة ، فإذا هى قد علته ، وارتفعت رؤوسها ، ويوشك هو أن يختفى وسطها ، حتى إذا اقترب من داره أقبل ثوره المحبوب ، لكى يتلقى من سيده ما اعتاده من الملاطفة والمداعبة . هذه هى الحياة ياسنوحى لا حياة القصور والحاشيات والبطانات . . .

كان الأمير يلقى هذا الوصف للريف ، ووجهه ضاحك مستبشر ، حتى إذا وصل إلى ذكر القصور أخذ وجهه يتجهم ، وعلته سحابة كآبة . ونظر إلى الأميرة كأنه يخشى أن تقول شيئاً . فلم تكذب نظرته لأن الأميرة بادرت فقالت وكأنها تكظم ما فى نفسها :

« ما ينبغى لنا ، وسنوحى لم يكد يستقر به المقام بيننا ، أن

نفره من رجالنا ، وحاشيتنا ، والحياة التى نحياها . ولست أشك فى أنه سيجد بيننا مقاماً طيباً ، ولدينا من وسائل اللهو والتسلية، مالا سبيل إليه فى الريف . ولكل حياة ميزاتها . .

هذه شقيقتى « بتسى » قد أقبلت وأريد أن يكون لسنوحى شرف مقابلتها ، فلابد له أن يحس أنه حين نزل بيننا قد استبدل أهلا بأهل ، وعشيرة بعشيرة » .

فى تلك اللحظة دخلت « بتسى » وفى تلك اللحظة تحولت تلك الحجرة إلى غرفة من غرف السماء ، وكأن جميع الآلهة والآلهات قد أطلت عليها مرة واحدة . ومن الخطأ أن يقال : دخلت بتسى ، بل هبطت علينا من وسط النجوم ، لأن هذا النور الذى بهرنا وغمرنا ، ليس فيه من هذه الأرض شىء . ولقد قابلت بتسى بعد ذلك مراراً . فكان هذا الشعور يعاودنى فى كل مرة . فأحس، إحساساً لا سبيل إلى الخلاص منه ، أنها لم تقبل على ، بل نزلت إلى .

إن بتسى شقيقة الأميرة . ولكن شتان بين الأخت وأختها فقد تشابهتا فى الملامح والتقاطيع وفى بياض البشرة . وطول القامة والشقرة الممزوجة بالصهوبة ، وبالعيون الشديدة الزرقة . التى

لم أتبينها إلا بعد مقابلات عديدة . . ولكن هذا التشابه على قربه سطحي ، فإنك تقرأ فى وجه الأميرة ، الصرامة والقسوة ؛ وفى وجه بتسى — إذا استطعت أن تطيل النظر إليه — تقرأ الهدوء والعطف والحنان . وتقرأ فيه شيئاً آخر لا سبيل لأن تراه فى محيا الأميرة : وهو الحب . كان وجه بتسى يفيض حباً . وكانت كل حركة أو نظرة أو ابتسامة منها تشع بالحب ، فتملأ الجو صفاء وطهراً . . . إن الذين يعيشون تحت ظل هاتين العينين لا يمكن أن يجد الشر سبيلا إلى قلوبهم . فما أسعدنى بهذا الجوار ، وما أجدرنى أن أجد فيه سعادة العمر ، ونعيم الحياة !

بهذا حدثتني نفسى ، وهى نفس عجول ولم تلبث الحوادث أن بدلت من هذا الحكم ، وألزمتنى بالاعتراف بأن الشوك قد ينبت مع الورد . وأن الشهد الجنى قد يكون إلى جانبه السم الزعاف . ولكن بتسى برغم هذا كله لم تزل هى الشعاع المشرق وسط غياهب الحياة ، والأمل الباسم حين يعبس وجه الزمان .

جلست على كرسى بجانب شقيقتها بعد أن حيتنا جميعاً بتحية الصباح . وقد عرفوها من القادم الجديد ، فنظرت إلى باسمة بثغر قد أطبق ورده على لؤلؤ مكنون . وقد اضطررت لأن

أستجمع إرادتى كلها وإرادة أسلافى من السنوحيين جميعاً ، لكى أحول بصرى عنها ، وأنظر إلى وجه مولاى الأمير . انتظاراً لأمره أو إشارته .

ولم يلبث أن نظر إلى وقال : « تستطيع الآن أن تنطلق إلى دارك يا سنوحى ، وستجد بالباب خادماً يصاحبك إليها . وأريد منك أن تستريح يومك هذا ثم تغدو على صباح غد ، فإنى أريد أن أخرج إلى الصيد ، إذ لا بد أن تجدد علمك بالرماية ، استعداداً لليوم العظيم الذى ينتظره الجميع بذاهب الصبر . والويل لك إن لم تبرز فى هذا الميدان فإن أبى لا يرحم ولا يغفر الذنب .

إنى أتمنى لك ناجاحاً باهراً . وسأحاول بجهدى ألا تفوتك فرصة الاستعداد والمران ، ولكنى على ذلك أخشى تفوقك وانتصارك لأنى أحببتك وأريد أن تظل فى خدمتى ، وألا تبرح حاشيتى ، وأكبر الظن أنك إن فزت ، فإن صاحب الجلالة لن يلبث أن يصطفيك لنفسه ، أو لنجله المفضل « سينو » .

ولست أريد أن أقف فى سبيلك . ونحن على كل حال قد غدونا أصدقاء أوفياء . أتعاهدنى على هذا ؟ .

لم يكن من الصعب على أن أعاهد الأمير على الوفاء ، بعد أن غمرنى هذا البحر المتدفق من فضله . وبعد الذى بلوته من رقته ونبله ، ثم ركعت بين يديه محيياً ، واختطفت لمحة سريعة من محيا بتسى . ثم انطلقت إلى دارى يتبعنى خادمى .

* * *

إن القارئ لا بد مدرك أننى فى ذلك اليوم — ظهره وعصره ومسائه — لم يبرح خاطرى خيال « بتسى » ، فقد احتل ذكرها قلبى كله ، وطرد منه كل ذكر وكل حس آخر . وبلغ من شدة أثر هذا اللقاء فى نفسى أنى لم يخطر ببالى أن أتساءل عن السر فى أن وجهها لا يشبه وجوه بنات مصر ، وأنها لا بد أن تكون من جنس غير جنسنا . لقد كنت فى شغل بها عن التفكير فى أمرها ، وأذهلنى حبها عن السؤال عنها ، حتى أتيحت لى الفرصة مساء ذلك اليوم ، بأن قابلت يونس الشاعر .

فى ذلك المساء خرجت من دارى أتمشى وأنا أعلم أنى إن آويت إلى مضجعى فلا أمل فى أن يزور الرقاد جفنى . مشيت على النيل حتى وصلت إلى نهاية المدينة ووليت وجهى إلى الناحية التى قيل لى إن فيها دار يونس ، وهى منعزلة عن سائر الدور .

فلم ألبث أن سمعت عن كثب نشيداً يرتفع فى الفضاء يصاحبه عزف على طنبور ، وكأن المنشد جالس على باب داره ، فاقتربت فما شككت فى أنى أسمع صوت يونس ؛ وأصغيت إلى كلامه فسمعته يغنى :

أيا منزلا بالرغم منى نزلتهُ ،
وبالرغم منى عنه سوف أزولُ . . .
إذا لم تطب فيك الإقامة ساعةً
فما جزعى من أن يحين رحيلُ ؟

فانتظرت ريثما وقف الإنشاد مليا ، ثم بادرت فاقتربت منه وصحت : « ويحك يا يونس ! هل سئمت الحياة ، وما زلت فى ريعان الشباب ؟ » .

ـ حييت يا سنوحى . لقد كنت أرجو ألا ينقضى اليوم حتى أراك فإذا رجائى يتحقق . تعال واشرب معى قدحا من الجعة ، أما إيثارى الشعر الحزين ، فإنى وجدت فى الحزن من الطرب ما ليس فى الدعابة والمجون .

ـ لقد أبدعت كل الإبداع ، فى قصيدتك التى أنشدتها

بين يدى الملك اليوم ، وقد أعجبنى منك هذه الطريقة البارعة فى مدح مليكنا ، دون أن تخاطبه بكلمة . وكأنه لم يخلق بعد ..

– ماذا أصنع وقد تهافت شعراؤنا على المدح المباشر ، بعبارات يوشك ألا يكون بينها اختلاف ، ومعان يرددها الواحد بعد الآخر ، من غير ملل أو سأم . . .

والآن دعنا من ذكر الشعراء ، وهلم هذا القدح من جعتى التى صُنِعت على عينى . وأنا بها جد فخور .

رحبت بهذه الدعوة وجلست إلى جانبه على أريكة فى شرفة المنزل وبين يديه خوان قد وضعت عليه الباطية والأقداح .

– إنها جعة عظيمة . وإنك لمبدع فى كل ما تصنع . ومع هذا ، وبرغم جودة الجعة ، فانى أريد أن أعود بك إلى حديث الشعر . وأن أستطلع رأيك فى الطور الجديد الذى انتقل إليه . وهذه القيود الجديدة التى يتقيد بها من أوزان وأحكام وقواف . ألم يكن الأمر أيسر والشعر فى جملته أروع ، فى عهد الدولة القديمة حين كان الشعراء غير مكترثين بالوزن ، ولا

يلتزمون قافية ، ولا يخضعون لحكم أو قانون ؟

« ألم تنصت إلى شعرهم الحر الجرىء ، يتدفق من غير كلفة أو قيد ، كما تمليه السليقة ، ويلقى به الجنان الثائر ، الذى امتلأ عاطفة ففاض شعراً ؟ »

قال يونس : « لا أشك فى أن الذى تقوله يشتمل على صواب كثير. لقد كان القدماء لا يعرفون الوزن ولا القافية كما نعرفهما اليوم ، وكانوا يعتمدون على طبع وحشى ، لم يهذبه التعليم ، ولم ترق به الصناعة . فكان جل اعتمادهم على التدفق والانسجام ؛ ومع هذا فقد كانوا يراعون فى شعرهم ضرباً من الرنين والائتلاف .هو فى الحقيقة عبارة عن الوزن والقافية فى حالة النشوء وبداية التكوين »

ـ أليس له تأثير يضارع تأثير الوزن والقافية ، وهو بعد هذا برىء من وصمة التكلف ؟

ـ إن شعر القدماء قد ضاع أكثره ، وتكفل الزمن بالقضاء على الغث ، واستئصال الفاسد . فبات الذى بين أيدينا وكله من عيون القريض ، فمن الظلم لشعرنا الحديث أن نقارنه فى جملته بشعر القدماء فى جملته . بل الأوفق أن نقارن أحسن

وأروع ما أنتجه عصرنا ، بأجمل وأروع ما خلفه الأوائل . وظنى أن هذه المقارنة ستثبت لنا أن إنتاج عصرنا أبهى وأبهر .

« إن القدماء فوق هذا قلما عالجوا من الموضوعات إلا القليل ، وقلما نجد من الشعر الرائع إلا ما وصفوا به شيث الجبار ، حين يقبل فى ظلام الليل وعيناه تتأججان حقداً وضغنا فيطعن عزيراً بخنجره طعنة نجلاء ... وبعد أن يصرعه ويروى الثرى من دمه ، يأخذ فى تقطيع رأسه وأوصاله وأعضائه عضواً فعضوا ؛ ثم يتناولها بيديه الدمويتين ، فيرمى بها فى طول البلاد وعرضها ... ثم تجىء إيزيس الزوجة الوفية ، والأخت الطاهرة ، فلا تزال تبحث فى أرجاء القطر ، حتى تلتقط الأعضاء والأشلاء وتجمعها ، وتنفخ فيها من روحها ، حتى تعود إليها الحياة لحظة . وفى تلك اللحظة ينبت فى بطنها الطاهر ذلك الجنين العظيم هورس ، ولا تمضى الأشهر المعلومة حتى يولد لها ذلك الطفل الإله ، الذى لا يلبث أن ينمو ويكبر ثم يمضى لأخذ الثأر من المجرم الأثيم الذى سفك دم أبيه ؛ وهكذا إلى آخر الرواية .

« إن مثل هذه القصة التى يرويها الناس بإيمان وحماس، لا بد لها بعد أن يتداولها الشعراء ، أن تكتسب صيغة ذات تأثير شديد ، مهما كانت تلك الصيغة وحشية بدائية لم تهذبها الصنعة ، ولم تصقلها البراعة ، والمهارة الفنية ... »

ــ ولم يدخلها التكلف والقيود المفتعلة

ــ لقد كانت من غير شك أدنى إلى الفطرة . كما كانت الحال فى جميع الفنون ... ولكن من الظلم والتعسف أن نزعم أن الصنعة ، ودقة النسج ، وإحكام النظم قد أنقصت من تأثير الشعر . وهذه الأشياء التى تصفها أنت بأنها تكلف وتقييد ، لا تكاد أن تحسها فى أيدى الشاعر البارع . والسر العظيم الذى ينطوى عليه الشعر الجيد ، هو أنه يشتمل على كل هذه القيود: من وزن وقافية وموسيقى ولفظ منتخب ، ثم تنصت إليه ، فلا تكاد تحس من هذه القيود شيئاً ..

ــ ويحك يايونس ! إنك قد جمعت بين الشعر والحكمة ، وأنت أحدث ميلاداً من أن تحشر فى زمرة الحكماء .

ـ إننى لم أتجاوز الثلاثين ربيعاً بعد . ولكن الجعة الطبية توحى بالحكمة أحياناً ....

وعلى ذكر الحكمة والحكماء . يسرنى أن ننتقل من حديث الشعر ، إلى حديث الحياة ، لقد بحثت عنك اليوم لأدعوك إلى منزلى . فقيل إنك فى دار الأمير آنى . ومن حسن التوفيق أن ساقتك رجلاك إلى

ـ وما علاقة رِجْلىّ بالحكمة والحكماء

ـ ذلك أنى أصبحت ولى صدق فراسة الحكماء . وقد رأيتك اليوم ، فأبصرت السذاجة والطيش مكتوبين على جبينك بأقلام من النحاس .

ـ سامحتك الآلهة . وما أظنها تفعل .

ـ وستسامحنى أنت أيضاً . حين أطلعك على ما حولك من مزالق الأقدام ، فتشكر اليد التى أمسكتك فى الوقت المناسب ، قبل أن تزل رجلك السريعة الزلل .

« إنك يا سنوحى مخلوق عجيب ! ها أنت ذا تنزل عاصمة الدولة ، وأنت غريب الدار لا تعرف من سكانها أحداً . ولا تدرى من شئونها إلا القليل ، ثم تسوقك المقادير إلى دار

رجل مثلى له قليل من الاطلاع على ما يدور سراً وعلانية، وقضى أعواماً طوالا يتقلب فى أفنية القصر الملكى وقصور الأمراء والوزراء . فجلست تتحدث إليه ، فلم يكن سؤالك عن المملكة أو القصر ، أو الأمير أو بتسى ؛ بل كان كلامك عن الشعر قديمه وحديثه ، وقيوده وأوابده .حقاً إنك لصعيدى من أكلة الجرذان »

ــ إنكم معشر الشعراء قوم ذوو ألسنة حداد .

ــ أنصت إلى ، واستعن على الإنصات بهذا القدح ؛...

« إن هذه العاصمة الباهرة قد أنشئت إلى الجنوب من منف المقدسة ؛ لكى تجمع القلوب المتنافرة ، وتؤلف بين أجزاء المملكة التى طال بينها الشقاق ، ومزقها التحاسد والتنافس . ولقد رأى أمينى فى جملة ما رأى من وسائل التوفيق والتأليف بين القلوب أن يتقرب إلى ذوى الجاه والسلطان ، من حكام المقاطعات ، فملأ حاشيته بأبنائهم وقصره ببناتهم ، واتخذ منهن زوجات ووصيفات . وبذل جهده فى إكرامهم والإحسان إليهم جميعاً . وبات القصر مزدحماً بما فيه من نساء مختلفات المشارب والمذاهب ، والمصادر والموارد . وزاد فى هذا

الخليط العجيب أن عاد الملك من إحدى غزواته ، بهؤلاء الليبيين ، وبأولئك الليبيات ذوات الشعر الأصفر والجلد المقشّر .

« ولكن أمراً واحداً ، أقدم عليه أميني دون أن يبالى بالتقاليد والأوضاع والسنن الشرعية . فإنه بدلا من الزواج من أخته وشقيقته ، رأى أن يتبع هواه فى زواجه ، وأن يزوج أخته من أحد أمراء الشمال ، فأنجبت الأخت الأمير آنى ، وانجب الملك الأمير سينوسرت . وزادت المقادير المشكلة تعقيداً بأن ولد الغلامان فى يوم واحد . فأيهما يرث العرش ؟ ابن الأخت كما تقضى بذلك الشرائع المقدسة ، أم ابن الملك كما تشير بذلك عاطفة الأبوة ، التى لا تقل حرمة وتقديساً ؟ وقد نما الغلامان وترعرعا فإذا هما خير من أنجبت الأمهات . قد كملا خلقاً وخُلُقاً ، وضربا بسهم فى ميادين العلم والعمل . وفى وسع الملك أن يرسل كلا منهما على رأس جيش ضخم ، وهو واثق أنه سيضطلع بالعبء بما يبعث الفخار ، ويحقق الرجاء .

« وليس مما ينقص من شأنهما أن أقول إن بينهما اختلافاً قليلا . فإن آنى أكثر رزانة وهدوءاً ، وأكثر ميلا إلى الدعة

ويحب اللهو والحياة المرحة . وبرغم قيامه بما يأمره به أبوه من محاربة الأسيويين ، فإنه يرى السعادة الحقيقية فى الحياة الهادئة فى المنزل وفى الريف . أما سينو فليس أحب إليه من الحرب والقتال ، وقيادة الجيوش ، واقتحام الأخطار . وأشهى شيء إلى نفسه أن يقود الغارة إذا طلع الفجر ، فينقض على العدو ، كأنما نزل من السماء ، أو انشقت عنه الأرض .

« وخلاصة الحديث أن مصر لوكانت تبغى ملكاً للسلم ومليكاً للحرب فإنها أسعد بلاد العالم بأميريها ، ولكن مصر تبغى ملكاً واحداً . وليس فى العرش مكان إلا لجالس واحد . بالرغم من زعمنا المتكرر بأن القطر قطران ، والعرش عرشان ، والتاج تاجان . ولم يكن بد بعد أن كبر الأميران وارتفع صيتهما فى البلاد من أن يتساءل الناس : « أيهما سوف يلى الملك ؟ » ... لقد عاش رجال القصر زمناً ، وهم فرحون بأن للملك ولدين ، كأنهما نجمان ساطعان ، حتى إذا ما كبرا وترعرعا ، أخذ الناس يدركون أن لهذه النعمة الجليلة ناحية أخرى تبعث القلق ، وتثير الخوف . فلقد تألف حول كل من الأميرين ، عصابة من الخلان والأصدقاء ، تؤيده وتتملقه ، ولكل منهما

أنصار تعمل سرًّا أو جهراً لكى يفوز صاحبها بحق الوراثة، لعلهم أن يبلغوا بذلك ما تطمح إليه أبصارهم من الرفعة والمكانة .

« ولم يلبث القصر الملكى أن أصبح مسرحاً للدسائس ، تحاك فيه خيوطها المعقدة، بمهارة وإتقان، ووجدت الفتنة فى هذا الجو المكفهر فرصة نادرة ، فجعلت تنفث سمها ، وتمد جذورها ، وإذا غاب الملك فى حرب أو غزو رفعت رأسها جهاراً ، وإذا عاد إلى قصره خفضت رأسها وعادت إلى العمل فى الخفاء »

ــ ألم يفعل الملك شيئاً لوقف هذه الدسائس ؟

ــ إن الملك الذى لم يعرف فى حياته إلا الفوز الباهر، والانتصار السهل ، هو آخر من يسىء الظن أو يحسب للدسائس حساباً . . أو يفكر فى العواقب ، وكأنما يظن أن بينه وبين الدهر عهداً ألا تجرى الأيام إلا بما يريد ويشتهى .

« وقد بلغ الأمر أن بات مغمض العينين على الحقيقة التى تطالعك أينما سرت فى طريق أو دخلت منزلا من منازل هذه العاصمة الجميلة « قاهرة القطرين » ، حيث الناس جميعاً قد

انقسموا حزبين : حزب الأمير آنى ، وحزب الأمير سينو . والأول يناصره أهل الشمال ، والثانى حزبه أهل الجنوب ذوو البأس والخطر ، كأنما عدنا مرة أخرى إلى عصر «عزير» وأخيه « شيث»

« ثم لم تلبث الأمور أن ازدادت تعقيداً بزواج الأميرين . فأما سينو فتزوج من ابنة « أميني » كما تقضى بذلك التقاليد المقدسة . وأما آنى فقد جن غراماً بالأميرة الليبية (نوراً) التى نزلت القصر كإحدى السبايا ، فلم تلبث أن أصبحت لها فيه مكانة هائلة ، لقوة شكيمتها وشده بأسها . وكان فى طبعها وأخلاقها ذلك الجانب الوعر الذى لا تجده فى طبع الأمير آنى.

ــ أهذا هو سر ذلك الغرام الذى استحوذ على قلبه ، ودفعه إلى الإصرار على الزواج بها ، أم تراه قد عشق منها هذه البشرة البيضاء الشاحبة ، والشعر الذهبي ، والعيون الزرقاء ، التى لا نجد لها نظيراً فى ديارنا ؟

ــ إنه على كل حال ، قد أصر على الزواج منها ، وهو يعلم أن الأمراء ليسوا أحراراً فى اختيار زوجاتهم . وأن أمر زواجهم ليس شأنا من شئونهم ؛ بل هو من أخص شئون

الدولة ، وليس للعاطفة البشرية فيه مكان ، وليس له أن يفكر في اتخاذ أبيه قدوة ؛ لأن ظروف زواج أميني تختلف عن ظروف آنى ، وقد تزوج أميني أميرة مصرية ، لا أسيرة ليبية ، ولست أشك في أن الأمير آنى كان يعلم ما هو مقدم عليه ، ويدرك أنه بخروجه على تقاليد القصر ، يضحى بحقه فى العرش ، وأكبر الظن أنه لم يكن يكترث للعرش أو للوراثة .

ولا شك فى أن خصاماً شديداً قد جرى بينه وبين الملك من أجل هذا الزواج ؛ فإن الملك شديد الرغبة فى أن يكون زواج كل من أبنائه وسيلة لتثبيت قواعد الملك ، وتقوية دعائم العرش ، وربما لم يكن يرى بأساً فى أن يتخذ آنى هذه المرأة وصيفة أو جارية . ولكنه كان ينفر أشد النفور من أن يتزوج ابن أخته ووريثه من هذه السبية .

— ولماذا لم يقبل الأمير أن يتخذها جارية ؟

سألت هذا السؤال وأنا متردد ، لأنى فى تلك اللحظة تمثلت أمام عينى « بتسى » فسخرت من الفكرة التى تجعل من هذه الفاتنة جارية من جملة الجوارى .

فقال يونس : « أتراك لا تعرف من هى نوراً » ؟ أتجهل

أنها أميرة ابنة أمير ؟ وهى فوق هذا كله امرأة قوية الشكيمة، جبارة العزم . فأنى لمثلها أن تقنع بمكان الجارية ، وهى التى تطمح ببصرها إلى أسمى المراتب ؟ »

ــ صدقت . لقد رأيتها ساعة من الزمن فما شككت فى أننى فى حضرة شخص ذى قوة وعزم ، وإدراك تام لما يروم ، وللطريق التى تؤدى إليه .

ــ إن الطريق لم تعد سهلة ميسورة : فإن « أمينى » وإن أبدى الرضى عن زواج « آنى » ، فإنه لم يلبث أن أسر إلى وزرائه أن ابنه الأكبر هو الأمير سينو الذى ولد ــ فى زعمه ــ قبل آنى ببضع ساعات . ومن عجب أن قد ظلت هذه الحقيقة الخطيرة مجهولة تماماً ، فلم تظهر إلا بعد ذلك الزواج ؛ ومهما يكن من الأمر ، فقد أصبح مسجلا فى وثائق الدولة الرسمية ، وإن لم يعلن بعد للناس ، أن أمر ولى العهد قد بات من الأمور المقررة ، التى لا سبيل إلى الرجوع فيها ، وارتفع مكان الأمير بين الناس ؛ لأن للناس إحساساً بما سيحدث ، فانضوى تحت لوائه عدد كبير من أولئك الذين لم يذهبوا إلى المعسكر الآخر عن إخلاص وتحمس . ولكن

مع هذا كله ، وبرغم هذا كله ، لا يزال هناك عصابة قوية تعمل فى الخفاء لكى يخذل ولى العهد ، وينتصر الأمير « آنى » . والأمير نفسه أزهد الناس كما قلت لك فى الملك والعرش . ولكن رفيقته فى الحياة ترى فى الأمر رأياً آخر . والآن يا سنوحى ، أترى أن عقلك الصعيدى قد ألم بحقيقة الموقف فى عاصمتنا السعيدة ؛ أم تراني مضطراً لأن أطعمك الجرذان لكى يتفتق ذهنك ويستنير عقلك ؟

— لقد فهمت الموقف ، ولا حاجة بى إلى طعامك ، ولا أظننى سعيداً بما فهمت .

— أجل إنك لست سعيداً بهذه الحال ، إنك توشك أن تصبح من عصابة الأميرة « نورا » إن صدق ظنى . .

اضطربت عند ما ألقى علىّ هذه العبارة ، وصحت دون أن أفكر : « كلا إننى لست من أفراد هذه العصابة أو تلك . »

— إنك تخطىء كثيراً إذا كنت تترك نفسك تنزلق وأنت لا تدرى ، فلا تلبث أن ترى نفسك قد تورطت فى إحدى الناحيتين فجأة ، دون أن تحسب لذلك حساباً . إن للأميرة « نوراً » شقيقةً فتانة الجمال . حتى ليقال إن رع الإله الخالق

لم يصنع بيديه شيئاً أجمل ولا أروع منها ، هذا على فرض أن رع قد خلق الليبيين كما خلق المصريين .

ــ وما خطب هذه الأميرة ؟

ــ إن اسمها بتسى

ــ وماذا علينا أن يكون اسمها بتسى ، وأن يكون لها كل هذا الجمال ؟

ــ إن هذا أهم شيء أريد أن أقوله لك . إن الأميرة نورا ذات قدرة عجيبة ، وبراعة مدهشة ، ولقد أرادت أن تضمن العرش لزوجها وإلا فلزوج أختها ، فأرادت أن يكون سينوفى مثل جرأة أخيه فيتزوج من « بتسى » البارعة الجمال . فإن فاتها أن تغدو ملكة ، فلن يفوتها أن تكون الشقيقة الكبرى للملكة .

« ومن العجيب أن سينوسرت الجاف الخشن الفظ مغرم بالأميرة بتسى . ولكنه مغرم بها غرام المحاربين ذوى الجانب الخشن ، يريد أن يتخذها جارية ومتعة ، لا ملكة وزوجاً . وهو لا يزال يطمع نفسه بأن يتحقق هذا الأمر فى يوم من الأيام ..

« ولكن هيهات أن ترضى الشقيقة الكبرى بمثل هذا المصير لأختها الحسناء . وأكبر ظنى أنها اليوم ــ وقد يئست من

أن تكون أختها زوجاً للأمير سينو ، تريد أن تكرس جهودها فى أن يصبح آنى ولى العهد ، أراد ذلك أم لم يرد . وتريد أن تفتش لأختها الحسناء عن زوج يعاونها ويشد أزرها فى نيل مرامها .. وقد سمعت بشاب من نبلاء الصعيد ، قد أقبل من الجنوب ، اشتهر بالقوة والنجدة ، وبشىء غير قليل من السذاجة . ويدعى سنوحى . فقدرت أنه أصلح الناس لأن يُمنَّى بزواج الأميرة الصغيرة . وقدرت الثمن الذى لا بد له أن يدفعه لهذا الزواج ، وأظنك تستطيع أن تدرك هذا الثمن ، فهو أن تضع جسدك وروحك ، وعدتك وقوتك ، وسرك وجهرك تحت تصرف الأميرة الليبية زوجة الأمير آنى . ولو أفضى الأمر لأن تناصب الأمير سينوسرت العداء ؛

« إن سينو بعيد عن العاصمة الآن . وهذا هو السبب الأول فى إلحاقك بحاشية الأمير آنى . والسبب الثانى أن الملك واثق من إخلاص سنوحى بن سنوحى . ويهمه أن يكون فى قصر الأمير أحد المخلصين .

« ذلك هو الموقف ، الذى أردت منك أن تلم به ، وأن تجعله موضع تفكيرك فى الأيام المقبلة .. فإذا كان فى هذا

ما يؤرق طرفك الصعيدى، فإن السهاد أقل ما يصيبك من حياة القصور .....

« لقد صدق القدماء حين قالوا : فتش عن المرأة . »

ـ وأنت يا يونس أما تخشى شيئاً ؟

ـ لقد استترت وراء الشعر ، واتخذته ردءاً ووقاية ، أبصر من ورائه كل شيء دون أن أثير ريبة أو أغضب أحداً ...

« اغد علىّ مرة أخرى بعد أن تعود من صيدك ، غداً أو بعد غد ، فربما كان لدى حديث آخر أدلى به إليك . إنى إأحس كأن فى الجو حادثاً تحاك خيوطه الليلة . وهو من الأحداث الجليلة ... »

٥

لم أنم ليلتى تلك إلا غراراً . وكان السهد يطول أحياناً حتى أضطر إلى النهوض من مضجعى والتمشى فى فناء الدار قليلا ثم أعود إلى مضجعى أستعطف النعاس . إن هذا الانتقال

الفجائى ، من سذاجة الريف ، إلى سفسطة المدن ، ومن بساطة القرويين ، إلى خبث المدنيين . ومن الحياة السهلة الهادئة إلى هذا العيش المعقد – الذى لا تستطيع أن تخطو فيه بخطوة وأنت آمن مطمئن – كان شديد الواقع على النفس . فأين أبى الشيخ الجليل ونصائحه التى كان يظن أنها تفتح أمامى كل مغلق؟ لكى يرى قلة غنائها فى هذه العاصمة العجيبة . فشتان بين طيبة عاصمة الجنوب وبين قاهرة القطرين . إن طيبة لم يكن فيها غير الجنوبيين . ولم يكن بها من الشرور إلا شرورهم . وهى كجرائم الأطفال خالية من كل تعقيد والتواء ... هنا العاصمة العظيمة التى اجتمع فيها الناس من جميع الأقطار . واحتوت جميع الشرور على اختلاف ضروبها وأشكالها .

ألعلى أخطأت إذ تركت أهلى وعشيرتى ، وغادرت عيش الهدوء والدعة ، إلى هذه الحياة التى امتلأت صخباً وضجيجاً ، والتى لا تجرى فيها الأمور إلا معقدة ملتوية ؟ إن النكوص على الأعقاب الآن ضرب من المحال . فهل ترانى على مدى الأيام أستطيع أن أسير فى هذه المسالك الوعرة ، وأن أجتنب ما يعترضنى من الأشواك ، والشراك المنصوبة ؟ لعلى أستطيع

ذلك لو أن ظروف الحياة سارت على مهل ، ومكنتنى بالتدريج من أن أعتاد هذا العيش شيئاً فشيئاً ، وأنال بالتجربة من العلم ما يمكننى من أن أخترق الحجب ببصرى ، وأعرف ما قد كمن وراء الظواهر الخلابة والابتسامات العريضة . ولكن الحوادث لم تمهلنى . بل تتابعت فى سرعة واطراد ومفاجأة ، لم يكن بد من أن تجرفنى وأن تقذف بى بعيداً .

لقد أرادت المقادير بى خيراً إذ أتاحت لى صداقة هذا الشاعر العجيب يونس . لم تكد عينى أن تقع عليه ، وهو قائم بين يدى الملك ينشده من شعره العذب الجميل،حتى أحسست بعطف شديد يجذبنى إليه . ومن حسن حظى أن توطدت بيننا المودة بهذه السرعة . وما زادنى مضى الأيام إلا إعجاباً بهذا الرجل ، وعجباً من قدرته الغريبة على الإحاطة بما يجرى فى القصور ، وما يدبر فى الخفاء ... كان يعيش منفرداً فى داره المنفردة ليس معه سوى عدد يسير من الخدم . وهو يزعم أن هذه الوحدة لازمة أشد اللزوم للشاعر المبتكر،فإذا جاءه الإلهام ليلا أو نهاراً كان قادراً على استقباله وإكرام وفادته والاحتفاظ به . لا يشغله عن ذلك أهل ولا ولد ... تلك دعواه ، ولكنه على

هذا كله،كثير الاتصال بعدد غير قليل من الناس،ولا يكاد ركن فى قصر من القصور أن يخلو من صديق له يثق به ويأتمنه على سره.

ولكنى رغم صداقتى ليونس ، التى ازدادت على الأيام قوة ومتانة ، لم أكن لأركن إليه فى كل أمر . وأن أستشيره فى كل ما يعرض لى من شئون الحياة ... إن قلبى هو الذى يحس ويخفق ، ووجدانى هو الذى يثور ويضطرب،فكيف أستطيع أن ألجأ إلى شخص آخر . لكى يمسك بيدى ، ويهدينى السبيل ،وقلبه لا يحس كما أحس،ولا يضطرب كما أضطرب؟ وفوق هذا كله لا بد لى من الاعتراف بأنى ألفت الاعتداد بنفسى . وهى نفس لم تكن تخلو من الزهو والغرور .

وهكذا ترانى أيها القارئ ، لم أنتفع بصداقة يونس الانتفاع الكامل . ولم أتحدث إليه عن شغفى « ببتسى » ولعله كان مدركاً لحقيقة حالى . ولكن كان من اللباقة بحيث لم يحاول أن يهتك الستر عن هيكل قلبى لكى يعرف الإله المعبود الذى تبوأ عرشه فيه

* * *

لقد طلع الفجر ، ولم أصب من النوم فى ليلتى هذه إلا

حظاً يسيراً . ولكن الشباب والفتوة فى غنى عن النوم الكثير . ولهذا نهضت من مرقدى فى غير قليل من النشاط ، وارتديت ثيابى ، وأخذت فى إعداد قوسى وملأت كنانتى بالسهام ... وجاء الخادم فقدم لى طعام الإفطار . فتناولته . ولم أكد أفرغ منه حتى حضر رسول الأمير يدعونى إلى لقائه .

فى تلك اللحظة كان ظلام الليل قد انهزم تماماً . وقد احمر وجه الأفق الشرقى . وأخذت المدينة تتحرك ، وتدب فيها الحياة. ووصلت إلى قصر الأمير آنى . فوجدته واقفاً بالباب ومعه طائفة من أتباعه وحاشيته ؛ فلم يكد يرانى حتى أخذ يلاطفنى .

ــ أترى ليل الشمال أهدأ وأعذب أم ليل الجنوب ؟

ــ كل الليالى فى جوار الأمير طيبة

ــ ليس هذا بجواب صريح على سؤالى . ولكنى أعفيك من بقية الرد : إنك ستصحبنى الآن إلى المستنقعات ، فإن هناك طائفة عظيمة من البط تناشدنا أن نذهب لصيدها ، إن هذا الطراز من الصيد هو أحب الأشياء إلى نفسى . وأخشى أن والدى العزيز وشقيقى « سينو » ينظران إلى هذه الرياضة كأنها ضرب من عبث الصبيان . إن أمينى لا يرضيه إلا أن يخرج إلى

الفلاة ، ويفتش فيها عن أسد من أضرى الأسود ؛ ثم لا يزال ينازله ويواثبه ، حتى تنفد قوى الأسد ، ويزأر بشدة احتجاجاً على هذه المبارزة التى لا تنطبق على الأصول المعروفة ،والأوضاع التقليدية . وكثيراً ما عاد أمينى من صيده ، يقود أسده حياً .

« وليس بإنسان فى نظر جلالته من لم يصد أسداً واحداً على الأقل . ولهذا تراه لا يستطيع أن يغفر لابن أخته آنى هذه الرياضات السهلة اليسيرة ... والآن هلم بنا إلى الترعة فإن الزورق ينتظرنا هناك . »

سرنا إلى الطرف الغربى من المدينة حتى بلغنا الترعة ... فوجدنا الزورق والملاحين . وجلس الأمير فى مؤخرة الزورق ، وجلسنا كلنا من حوله . وأمسك الرجال بالمجاذيف العشرة ، فانطلق الزورق بسرعة يشق سطح الماء ..

وقال الأمير : « كنت أود أن تكون الأميرة معنا ، ولكنى أخشى أن « نورا » لا تجد لذة فى هذه الساعات التى نقضيها وسط المستنقعات . ولا ترى معنى فى أن نصيد عدداً قليلاً من البط بالسهام أو بالنيازك . مع أن رجال القصر يصيدون منه

المثات بشراكهم وأساليبهم الخاصة . ويحضرونه إلى المنزل دون أن نسعى إليه ! »

ــ لعل الأميرة تنزع إلى الوجهة العملية فى كل شىء .

ــ إن الصيد والرياضة عندها ضرب من العبث ؛ وهى تفضل أن تقضى الوقت فى قصرها ، تستطلع الأنباء وتتحدث إلى الوصيفات . وتشرف على تجميل الحجر وزينتها . وفى هذا كله ما يشغل المرأة . ولكن نحن أبناء الأمراء والنبلاء ، ما الذى يشغلنا إذا لم يكن هناك حرب أو غزو ؟ لولا الرياضة والصيد لكانت حياتنا ثقيلة المحمل ، قائمة على السأم ... ولكن ما هذا ؟ ... إن فى قاع الترعة شيئاً يتحرك . أوقفوا المجاذيف .

وقف التجذيف فجأة ... وأخذ الزورق ينزلق بخرير هادئ على صفحة الماء . لقد صدق ظن الأمير ، إن الحيوان الذى كان يسبح تحت الماء ، قد اقترب من السطح . وها هى جثته الضخمة تبدو فى الماء . إنه عجل البحر ، وقد امتد رأسه الطويل فوق السطح ، وأما أكثر الجثة فلايزال مغموراً بالماء. فى تلك اللحظة انطلقت من يد الأمير فجأة حربة ذات نصل غليظ ، فاستقرت بين كتفى العجل . فلم يلبث أن غاص تحت

سطح الماء ، واندفع يسبح البقية الباقية من عمره . وهو يجتذب الحبل المعلق فى آخر الحربة ... وكان حبلا من الكتان المتين ، طوله مائه ذراع . ولم يزل يجذبه فى اندفاعه بعنف ، حتى لم يكد يبقى من الحبل شىء وأمسك أحد الغلمان بطرف الحبل لكى يقذف بنفسه فى الماء ، وراء الفريسة . ولكن لم يكن هنالك داع لهذا . فإن الجذب قد انقطع وصار من الواضح أن البهيمة باتت لا حراك بها . فأخذ الغلمان يجتذبونها شيئاً فشيئاً ، وبعد قليل ظهرت الجثة إلى جوار القارب ، والنصل مثبت فى جسدها . ثم لم تلبث أن رفعت إلى سطح الزورق .

فاتجهت ورجال الحاشية إلى الأمير بالتهنئة ، على هذه الإصابة المدهشة ؛ وقد كان بيننا وبين العجل عشرون ذراعاً . ولكن الأمير لم يجد فى هذا ما يبعث على الفخر . واكتفى بأن قال : « من حسن الحظ أنى كافر بالشؤم والتشاؤم . وإلا لأحزننى أن يكون أول صيد أصيده هذا العجل . وكيف يعد من الشؤم أن يكون أول رزقك كبيراً ضخماً ؟ إن المتشائمين قوم ضعاف الحجة أبداً . »

ابتسمنا كلنا من تفاؤل الأمير ، ووددت أنا بعد ذلك لو

أنه انتبه لصوت النذير ، ولكن فى تلك الساعة الجميلة لم يكن على ظهر الزورق من يريد أن يفكر فى المستقبل ، أو يفسد جمال اليوم بتوقع الشر .

لم نلبث أن بلغ بنا الزورق إلى موضع ، انتقلنا فيه من الترعة الكبيرة إلى قناة صغيرة ، عرضها لا يزيد على عشرة أذرع . ويوشك أن لا يكون فيها متسع إلا للزورق والمجاذيف التى تتحرك عن جانبيه . وكثيراً ما اشتبك المجذاف بأغصان الصفصاف المتدلية على صفحة الماء . أو بأصول شجرة من الطلح ، قد مدت جذورها الملتوية إلى داخل القناة . وفى أثناء انزلاقنا على سطح القناة الناعم الأملس ، ارتج بنا الزورق فجأة ، واختل توازننا قليلا . فبهتنا لحظة ، ثم ضحكنا ، لأننا رأينا المخلوق الذى سبب صدمتنا يزحف إلى الشاطئ يكسوه الخزى المخزى ، والخجل المخجل . لا أظن أن فى الكائنات جميعاً أبلد من التمساح ولا فى تماسيح الأرض أبلد من تماسيح قطرنا العزيز . ولا شك أن تمساح اليوم من أبلدها جميعاً . فلقد كان قابعاً فى طريقنا ، تأبى عليه بلادته أن يتحرك ذات اليمين أو ذات الشمال . . حتى صدمه زورقنا صدمة أطارت صوابه ، إن كان له صواب .

ومضينا دون أن نحفل به ، فلم نلبث أن وصلنا إلى المستنقعات ؛ فإذا أمامنا مساحة عظيمة من الماء لا يبلغ البصرُ مداها . وإذا قلت مساحة من الماء ، فليس معنى ذلك أننا نرى الماء فيها دائماً . بل الحقيقة أن أقل شيء تقع عليه العين منها هو الماء : فبرغم وجوده فى كل مكان ، فإن صفحته مغطاة – عدا قليلا من المسالك والمسارب – يكسوها ورق النيلوفر ، ويخرج منها زهر البشنين الجميل ، كأنه نجم يضيء ، وقد نبت وسط الماء حشد هائل من البردى ، قد ارتفع ساقه ورأسه فوق سطح الماء ، وغابت أصوله فى القاع . وهو يبدو مجتمعاً ملتفاً فى صورة جزر صغيرة ، ويحتل من المستنقعات معظمها ، تاركاً مساحات قليلة من الماء تجرى فيها الزوارق . وأخرى يرتفع فيها الثرى قليلا عن سطح الماء ، فتنمو فوقها طائفة من السنط والطلح والنخيل .وهذه بمثابة جزر حقيقية ، قد انحسر عنها الماء تماماً . ومن الممكن أن تنزل بها لتستريح وتتناول طعام الغداء .

ولم يمض وقت طويل حتى بلغنا جزيرة من هذا الطراز ، فألقينا المراسى هناك . إذ كان من المتعذر على الزورق الكبير

أن يجرى وسط المستنقعات ، حيث الماء ضحل ، والمسالك ضيقة . ولقد نظرت من الزورق إلى هذه الجزيرة ؛ فإذا هى ليست كسائر الجزر ؛ بل كانت عبارة عن بستان صغير ، تتوسطه خميلة ظليلة ، وبها مقاعد ومتكآت .

هنا ركب الأمير زورقاً صغيراً جداً لا يكاد يتسع لأكثر من اثنين ؛ ودعانى لأن أركب معه ، وتركنا سائر الحاشية وراءنا ، فلم نصطحب غير كلب سلوقى . وكان بالجزيرة عدد من تلك الزوارق الصغيرة جداً المصنوعة من شجر البردى ، التى تستخدم فى الشمال كثيراً ، وهى لا تتسع إلا لشخص واحد . ولكن الأمير لا يحب استخدامها ، لأنها كثيراً ما تضطرب براكبها لأتفه الأسباب . أما الزورق الصغير الذي ركبناه فمصنوع من جذع طلحة غليظة بعد تجويفه وتقويره وهوكسائر الزوارق الصغيرة ، لا يدفع بالمجاذيف الأفقية ، التى لا تتسع لها المستنقعات ، بل يدفع بمجذاف واحد رأسى ، يمسكه المرء وهو جالس فى مؤخرة الزورق ، وهو يؤدى به عمل المجذاف والدفة فى آن واحد .

وقد جلست فى المؤخرة ، وتوليت إدارة الزورق وتوجيهه .

ووقف الأمير فى الوسط ومعه عدته من السهام والنيازك . وأقعى السلوقى أمامه فى مقدمة الزورق . وهو منتبه للصيد ولما يسقطه الأمير منه .

ونظر الأمير إلىّ وقال : « إن للمستنقعات فى إقليمنا هذا سحراً وجمالا لا تجد له نظيراً إلا فى الفيوم أو النواحى المتطرفة من مصر السفلى . »

قلت : « إن البرك قليلة جداً عندنا . وهذه أول مرة أنعم فيها بهذه الرياضة المنعشة فى هذه المساحة الهائلة من الماء والنبات . »

— إننى أفضل هذه الرياضة على صيد الصحراء . وأسعد أوقاتى الساعات التى أقضيها هنا وسط المستنقعات ؟

— إنى أرى جموعاً عظيمة من الطير فى أحجام وألوان وأشكال متعددة فهل يفضل الأمير بعضها على بعض .

— أكره أن أصيد الطير النادر ؛ وأبغض أن أكون سبباً فى فناء طير يمتاز برونقه أو جمال ريشه ، أو حسن صوته . اللهم إلا أن يكون عددها كبيراً جداً ، ولهذا ترانى أفضل فى الصيد النيازك على السهام .. إن هذه النيازك التى تراها قد صنعت

بإتقان عظيم ، فكل منها مصنوع من الخشب النادر ، وقد قطعت بدقة وإحكام في الطول والعرض والسمك ، ثم صهرت على النار لكي تجف ، ولكي يتسنى للصانع أن يلوى يدها بالقدر الضرورى تماماً .

« وأنا أفضل النيازك الخفيفة لأنها قلما تقتل الطير ، بل تصيبه فيقع حياً ، ثم يرتد النيزك فيقع تحت أقدام الرامى ، هل تعرف رمى النيزك ؟ » ...

— لم تتح لى فرصة للرماية بهذه الآلة .

— لا بد من أن تتعلم هذا الفن . فهو تسلية جميلة . إنى أستطيع أن أصيب بها على بعد الخمسين أو الستين ذراعاً . بل بل قد أبلغ المائة أحياناً .

فى تلك اللحظة لاح البط من كل جانب ، وانطلقت نيازك الأمير يميناً وشمالا . فلم تخب له رمية واحدة . وانطلق السلوقى والأمير يدعوه خوفو — وراء كل رمية ، فيعود بالبطة ، فيتناولها منه الأمير ، ثم يناولنى إياها ، فإذا كانت فيها بقية من الحياة ربطتها فى الحبل إلى جانب أخواتها . وإن كانت ميتة ألقيت بها وسط الزورق .

بلغت الشمس وسط السماء ، ثم أخذت تنحدر نحو الغرب . وقد امتلأ الزورق صيداً . فأمر الأمير بأن نعود إلى الجزيرة ؛ فالتمست قطعة من المستنقع قد اتسعت فيها رقعة الماء ، واستطعت أن أدير الزورق فيها نحو الشرق . وأخذت أجذف والجوع يحرك ذراعى ، فانطلق الزورق كالسهم. فلم نلبث أن بلغنا الجزيرة واتخذنا مكاننا من الخميلة .. ولم يمض وقت طويل حتى كنت ألتهم غداء شهياً يتألف من شواء عجل البحر ، وسمك طرى ، وبط محشو . وقد استعنت على التهام هذا كله بأقداح من النبيذ الفاخر ، لا أظن أنى ذقت له نظيراً فى حياتى .. لقد أخطأ يونس فان حياة القصور لا تخلو من الطيبات .. ولئن كانت طيباتها من هذا الطراز فإنى مستعد لأن أحتمل منغصاتها ، كائنة ما كانت ... فما أجمل الحياة ، وما أبدع الكون ، وما أعذب نغمات الطير الذى لم ينقطع تغريده كأنه شرب مما شربنا ، وطرب كما طربنا . فى تلك الساعة الرائعة من ذا الذى يبلغ به الحمق أن يفكر فى منغصات الحياة ؛ أو مفاجآت الأقدار ؟

فى تلك الساعة سمعت أصواتاً تشق سكون المستنقع ، ولم

تمض لحظة حتى بدأ زورق فخم يقل الأميرة « نورا » وعدداً من وصيفاتها . لا أظن أن الأمير كان يتوقع هذه الزيارة . ولكنه لم يبد دهشة أو حيرة . بل نهض ، وأخذ بيد زوجه ، وهى تنزل من الزورق ، فسارت إلى جانبه ، وحيتنا بتحية جامدة ، ووجهها شاحب كعادته ، وعيناها تلتهبان كعادتهما .

ولم تكد تستقر على الأريكة حتى أمرتنا جميعاً أن نعود إلى الزوارق وأن نبتعد عن الجزيرة . فأطعنا الأمر فوراً . ولا شك أن الأميرة تريد أن تسر إلى زوجها حديثاً خطيراً . ولم تطق الانتظار ريثما يعود . فأقبلت إلينا فى سرعة هائلة لأنى رأيت رجال زورقها فى حالة إعياء ظاهر .

ابتعدنا جميعاً عن الجزيرة ، لكى تستطيع الأميرة وزوجها أن يتهامسا كما يشاءان ، ولم يبق معهما فى الجزيرة من الأحياء شيء سوى « خوفو » السلوقى ، والبط الذى اصطاده الأمير حياً . ومع هذا فإن للبط أحياناً آذاناً تعى وتفهم ! وقد علمنا من سياق الحوادث التالية فحوى الحديث الذى دار بين الزوجين .

إن الملك « أمينى » قد أعلن للناس جميعاً أن ولى عهده هو الأمير « سينو » وبعث الرسل إلى جميع البلاد لكى تدعو الحكام

والنبلاء إلى احتفال عظيم لتكريم الأمير ؛ وأرسلت بعثة خاصة إلى الجنوب لاستدعاء الأمير من أرض « واوات » ... وغير ذلك من الأنباء التى أقضت مضجع الأميرة وعصابتها . وقد رأت آمالها توشك أن تنهار فأسرعت تسر الحديث إلى زوجها ، ولا شك أنها لم تكن أفضل الساعات لمفاتحة الأمير فى مثل هذا الأمر الخطير . فإن هذا هو اليوم الذى يبدو فيه له أن السعادة كل السعادة فى البعد عن الملك ، وعن العرش ، وعن التاج الشمالى والجنوبى على السواء .

ولكنى لا أشك فى أنه بذل جهداً كبيراً لكى يجارى الأميرة ويلاطفها ..وقد مرت ساعات ونحن ننتظر بعيداً عن الجزيرة ، ثم نودى علينا أن نقترب ، فاقتربنا ، فدعانى الأمير إلى الجزيرة . فنزلت وحدى . وابتعد الزورق مرة أخرى .

وهناك فى وسط تلك الخميلة ، وسط حفيف الشجر ، وتغريد الطيور ، جعلتنى الأميرة أقسم بالآلهة جميعاً على الوفاء لها ، ولزوجها ، وأن أأتمر بأمرهما ، وأن أنصرهما وأن أكون لهما فى السراء والضراء خادماً أميناً وصديقاً مخلصاً ... »

٦

انقضت بعد ذلك ثلاثة أيام ، لم تهدأ العاصمة فيها لحظة ، وكان القصر الملكى بوجه خاص فى حركة لا تنقطع ، وكنت تلك الأيام فى معية الأمير ، أصاحبه أينما ذهب ، ولم ألاحظ فى سلوكه أو مظهره شيئاً يلفت النظر ، اللهم إلا اليوم الثالث ؛ فلقد صاحبته إلى القصر ، حيث دار بينه وبين الملك حديث طويل . ثم خرج بعد ذلك ، وفى وجهه شحوب ووجوم لم أكن أعهدهما فيه ..

وتاقت نفسى لأن أدرك شيئاً مما يدور خلف تلك الجدران والأستار ، وأنا أعلم أن كثيراً مما يجرى معروف لطائفة غير قليلة من رجال القصر ونسائه . ولكن أنى لمثلى — وأنا الحديث العهد بالدار وسكانها — أن يكون لى سبيل إلى تلك الأسرار ؟

ثم فكرت فى يونس ، وأنا عائد إلى دارى قبيل الغروب . فلم أكد أبلغها حتى ألفيته لدى الباب ، ومعه شخص أسمر اللون ، قصير القامة ، تبدو فى عضلات جسمه قوة غير عادية .

— هذا صديقى « صعب » وهو صاحب نجواى . وقد

رآك منذ ثلاثة أيام وأنت تذهب إلى الصيد مع الأمير ، وأنت ضاحك مستبشر ، ثم تعود وأنت ساكت واجم .

— إنك من غير شك قد علمته الفضول ، واستراق السمع ، فويل لكما من إله السموات !

— على ذكر السموات ، أريد أن تصاحبنا إلى الضفة الشرقية ، فإن لى هناك كوخاً صغيراً يطل على النيل من فوق مرتفع من الأرض . ومن هناك ننظر إلى السماء جهة الغرب لكى نرى اقتراب الزهرة من الهلال . إن هذا أجمل منظر فى السماء . وهو أجمل ما يكون حين تنظر إليه من الضفة الشرقية ، ودونه النيل يجرى فى هدوء وسكون . وقد بسط أمامك صفحة ملساء ، يبدو فيها الهلال مقلوباً والزهرة من تحته . هلم قبل أن تغرب الشمس ، فالزورق فى انتظارنا .

لم نلبث أن بلغنا الضفة الشرقية ، وتسلقنا قليلا حتى وصلنا إلى ما سماه يونس « كوخا » ، وهو دار صغيرة جميلة ، ذات شرفة وعمد ، إذا جلست فيها استطعت أن تقرأ الجو والمغرب والنيل ، كأنها صفحات من سفر جليل .

كان المساء عذباً والجو شفافاً ، وقد ازدادت السماء زرقة

باقتراب الغروب . ولم تلبث الشمس أن دنت من الأفق دنواً شديداً ، وارتفع الاحمرار فى السماء وانعكس على وجه الماء .

ولكن الذى بهرنا لم يكن منظر الشمس الغاربة ، ولا النيل الهادىء الوادع ، ولا الكروان يملأ السماء تغريداً وإطراباً ، ولا الهواء المعطر بأريج الزهر . بل منظر الهلال وقد استقل وسط سماء المغرب كأنه زورق يسبح ، وقاعدته نحو الأرض ، ورأسه وذنبه مرتفعان ، كأنه قوس عظيم من الفضة مفتوح إلى أعلى ، ومن فوقه الزهرة على مسافة تقرب من الذراع ، تلمع وتتوهج ، وترقص وترتعد ، كأنها أكرة من الزئبق .

ثم غابت الشمس وأظلم الكون ، واسودت السماء قليلا ، فازداد الهلال لمعاناً ، وازدادت الزهرة توهجاً وخفقاناً . واستبد الهلال والكوكب بملك السماء ، حتى تخال أنهما يتزعمان الكون كله . فليس لنجم آخـــر ضياء يرى ، ولا للأجرام وجود يحس . فى تلك الساعة رُكزت العيون فى ذلك الركن الغربى من السماء ، تحدق فى الزورق الفضى اللامع ، وفى الكوكب الدرى الذى يبدو كأنه يريد أن ينقض إلى قاع الزورق ، فتمسكه يد خفية .

مضى وقت طويل ونحن الثلاثة نتأمل هذا المنظر ، ونشربه بأعيننا وأرواحنا ، حتى ارتوينا أو كدنا أن نرتوى . عند ذلك انحلت عقدة لساننا وأخذنا نتساءل عن السر فيما انطوى عليه هذا المنظر السماوى من سحر وجاذبية وشعر ! إن الهلال يلمع فى الغروب دائماً فى الأيام الأولى من كل شهر . وهو هو دائماً الزورق الفضى السابح فى السماء ، والزهرة رقاصة الفلك ، تبدو تارة فى الفجر وطوراً فى المساء . فليس ببدع أن نرى الهلال والزهرة معاً يسبحان فى سماء المغرب . فما الذى بهرنا فى منظر هذا المساء ؟

قال صعب : « إن سحر هذا المنظر يرجع إلى الإقتراب الشديد بين جرمين لامعين ، حتى ليوشكا أن يتعانقا ، وهما لو تعانقا لبطل سحرهما ، وضاعت روعتهما . لأن اختفاء الزهرة وراء القمر يسلب هذا المنظر نصف بهجته ، وكل روعته .

« فسر الفتنة التى نشاهدها إذن ، هو الاقتراب ، دون الاقتران ... وما أشبه هذا بسحر منظر الخطيبين الجميلين ، قبل أن يفسده القرن . »

ضحكنا من هذا التشبيه . وتساءلنا إذا حدث القران بين

الزوجين فأيهما يختفى : الرجل أم المرأة : الهلال أم الزهرة ؟

قال يونس : « لا أظن أن مجرد اقتراب الهلال من الزهرة هو روعة هـــذا المنظر . بل إن السر يرجع إلى التناسب العجيب بين موضع كل منهما وحجم كل منهما بالنسبة للآخر. فإن زورق الهلال منبسط إنبساطاً أفقياً ، كأنه يسبح حقيقة فوق سطح أزرق أملس . والزهرة منه فى مكان الوسط تماماً . ولكنها تبعد عنه قدر ذراع . وهذا البعد القليل هو أيضاً سر من أسرار جمال هذا المنظر . فلو أنها ابتعدت عن الهلال أكثر من هذا لفقد المنظر وحدته وإنسجامه ، ولو أنها اقتربت أكثر من هذا ، لفقد كل من الاثنين وحدته ، وأوشك أن يندمج فى الآخر . . . وفوق هذا فأنتما أدري بالخطر العظيم فى أن يقترب كائن شرير مثل الهلال بمن كان مثل الزهرة على جانب غير كبير من الذمة وكرم الأخلاق » . . . .

وهكذا لم يكن بد من أن ينتهى الشرح الفنى الدقيق بنكتة على مألوف عادة يونس. أما أنا فقد خالفتهما فى رأيهما . وقلت : « إن الذى يسحرنا فى هذا المنظر ، هو ما يثيره فى نفوسنا من الدهشة لغرابته ، وندرته. وفى السماء — بل وفى الأرض أيضاً —

(هنا تمثلت بتسى) ما هو أجمل من هذا المنظر وأروع ، فالبدر وقت تمامه ، ونهر المجرة تكرع فيه النجوم ، والشمس حين تبدو سافرة أو مقنعة وقت الغروب . هذا كله أروع من اجتماع الهلال والزهرة . ولكنها أشياء قد ألفناها وتعودناها . وهى تحدث فى كل حين .. أما هذا المنظر فإنه نادر جداً . وكل شىء نادر يثير الدهشة وإن لم يزد إعجازاً أوروعة عما هو مألوف معروف . .

« ولست أنسى الضجة الهائلة التى أثارها رجال الدين ، وقت ظهور النجم ذى الذنب وكيف استغلت تلك الفرصة الفلكية العجيبة لاقتناص الثروة وابتزاز المال . » .

قال صعب : « كأنما أخذوا على النجوم عهداً ألا تتخذ ذنباً مدى الدهر . وإذا كانت الدابة تتمتع بذنب طويل جثل فما أجدر النجوم أن يكون لها مطلق الحرية فى أن تتقلدما شاءت من الأذناب » .

قال يونس : « إنى كلما تذكرت الضجة العظيمة التى أثارها الكهنة فى ذلك الوقت ، والمغانم الكثيرة التى غنموها يخيل إلى أنهم قد تسلقوا السماء فى جنح الليل وركبوا بأيديهم ذنباً لبعض النجوم

قال صعب : « إن رجال الدين خير من ينتهز الفرص ، وهم ليسوا من الغفلة بحيث يدعون ذلك الحادث الغريب يمر دون أن يملأوا خزائنهم ، ويوسعوا ضياعهم ... »

قال يونس : « كان الملك أميني فى ذلك الوقت غائباً يحارب (الماثوى) . أما اليوم فهو من حسن الحظ بين أظهرنا ، وهو أعلم بالنجوم من كهنة رع . وقد بلغنى أنه اتفق وإياهم على أن يذيعوا بين الناس أن اجتماع الهلال والزهرة هذا فاتحة خير ، وفأل سعادة ، وأن البركات والنعم ستحل بأرضنا ولن تبرحها ما دمنا مقيمين على الإخلاص للعرش ، والإحسان للجار ...

« وعلى ذكر الإحسان للجار ، أظن أن داخل الدار أدفأ من هذه الشرفة ، وقد أعددت لكم فى الحجرة قليلا من الزاد ، فهلم بنا إليه . وهناك نستطيع أن نتابع حديثنا فى هدوء وسكون ، فإن لدي حديثاً أريد أن أسره إليكما ... »

لم تكن بى حاجة شديدة إلى الطعام . ولكنى أصبت من الجعة حظاً وافراً . ونظرت إلى يونس نظرة المتلهف المتعطش . ولم أستطع أن أخفى ضجرى ففطن لما يجول بنفسى ، وقال :

« تكلم يا سنوحى أمام صديقنا « صعب » فهو خير من تفتح لديه قلوب الأصدقاء . ويدلى عنده بالأسرار . »

قلت : « ليس لدى سر أدلى به ، ولكنى فى حيرة من أمرى ومما يجري حولى . فهل من المألوف أن تكون القصور الملكية فى هرج ومرج ، وحركة لا تنقطع ليلا أو نهاراً . ولقد دهشت اليوم حين دعانى الأمير آنى وأسر إلى حديثا عجيباً . سأكتمه عن جميع الناس . ولكنى سأفضى به إليكما . وهو أنه ربما غادر العاصمة فجأة ، وآوى إلى مكان مجهول ، وطلب إلى أن أبقى فى المدينة لكى أسهر على خدمة زوجه وحريمه . فما عسى أن يكون وراء هذا كله من الأسرار ؟ أو لعل الأمور يسيرة سهلة ، وأنا الذى يخيل لى الوهم أنها تنطوى على سر غامض ومعنى خفى . »

قال يونس : « كلا إن الأمور لا تجرى فى سهولة ويسر . ونحن جميعاً فى أشد الحاجة ، لأن نأخذ حذرنا ، وأنت بوجه خاص يا سنوحى أجدرنا بأن تخطو بتؤدة ؛ فإن بلاط القصر ناعم أملس ، ولكن سرعان ما تنزلق عليه الأقدام ... إننى لا علم لى بكل ما يجرى اليوم . ولكنى أقص عليكما ما بلغنى

بالأمس . منذ ثلاثة أيام كما تعلمان أفشى الملك أمراً كان يعرفه الجميع ، وهو أن «سينو» نجله الأكبر سيرث العرش من بعده.

« ولو وقف الأمر عند هذا لما كان هنالك شيء جديد ، ولكن الأمر لم يقف عند هذا . فإن الملك فى مساء ذلك اليوم اجتمع ووزيره « هامان » اجتماعاً غير قصير ودار بين الاثنين حديث خطير ، أنقل إليكما ما بلغ مسامعى منه .

« قال الملك لهامان إنه لا يريد أن يكتفى بأن يعلن أن ابنه سينو هو ولى عهده ، دون سواه من أبنائه . بل يريد أن يخطو خطوة أبعد مدى . فإن الدولة ما برحت فى حالة من التزعزع الخفى ، برغم ما يبدو فى ظاهر الأمور من الرسوخ والاطمئنان . ولا يزال بين الناس من يرى أنى أحق بولاية الملك ، ولا بد من اتخاذ خطوة حاسمة ، تقطع حبل الإرجاف وتقضى على كل اختلاف .

« وقال الملك : إنى قضيت زهرة العمر أحارب العدوان من الخارج ، والفتنة فى الداخل ، فلم أفز فى كلا الميدانين بنصر حاسم فها هو ولدى سينو لا يزال يشن على « واوات » حرباً لاهوادة فيها . وما أظن أجلاف الأسيويين إلا منتظرين ريثما تضمد جراحهم ثم يعاودون الكرة ، ويلجأون إلى العدوان

مرة أخرى . إن هؤلاء البدو لا سبيل إلى مسالمتهم ومهادنتهم . ولا يعرفون إلا أحد أمرين : إما أن تقهرهم أو يقهروك .. وإنى بعون الإله قاهرهم ما حييت ! وسأضمن لهم أن يكون على عرش مصر من يقهرهم دائماً .

« ولكى أصل إلى بغيتى هذه ، لا بد لى أن أركن إلى نظام داخلى مستتب ، وإلى حكام فى مقاطعاتنا الأربعين ، يلبون ندائى إذا ناديت ، وينجدوننى فى كل وقت ... فهل حكام المقاطعات جميعاً من هذا الطراز ! إنك تعلم يا هامان أن بينهم عدداً غير قليل ممن لا يكفهم عن العدوان إلا خوف السلطان . ولهذا اضطررت لأن أشعرهم هذا الخوف دائما ، لأن قلوبهم لا يستميلها الحب ، ولا يصلحها الإحسان ... والعدل بين الناس — تلك النعمة الجليلة التى تنعم فى ظلها الأمم بالسعادة والرخاء — شىء يؤذيهم ويضرهم ، لأنه يقص جناح أطماعهم ، ويكفكف غرب شهواتهم ..

« إن هذه الطائفة لا تلبث — إذا ما أزمة أزمت — أن تلقى بالحطب اليابس وسط اللهيب لكى تزيد النار اشتعالا واضطراما . لهذا لا بد لى أن أتخذ إجراء حاسما ،

يضمن استقرار الأمور بعد أن أنتقل من هذا العالم »

قال هامان : « طال عمر جلالتكم . فإن أمامكم السنين الطوال لكى تتمموا ما بدأ تم وتتركوا لولدكم سينو دولة راسخة القواعد ثابتة العمد . »

قال الملك : « لا خير فى جيل لا يعيش إلا لنفسه ، ولا يفكر إلا فى يومه ؛ إن أبناء الجيل الواحد قد يبلغون أسمى الدرجات فى العلم ، والفن ، والسياسة ، والحرب ، ويسوسون بلادهم بالحكمة والعدل ، والبراعة النادرة . ولكن أنهما كهم فى الحكم والإصلاح ، قد يلهيهم عن إعداد الجيل الذى يخلفهم ؛ وكأنما بهرتهم آثار أيديهم ، وثمار عقولهم ، والشعلة الهائلة التى أوقدوها ورفعوها إلى السماء ، حتى غفلوا عن أكبر الواجبات ، وأجلها خطراً ، فلم يعنوا بالذين سيخلفونهم ، وينهضون بالعبء من بعدهم ، فإذا البناء الضخم ينهار ، وليس هنالك من يمسكه . وإذا الشعلة العظيمة تخمد فلا تجد من يوقد جذوتها . وإذا المنشآت الجميلة تتهدم ، وليس من يقيم أركانها ، ويدعم بنيانها .

« إن الأفراد تغتالها المنون ، بعد عمر طال أو قصر . ولكن

الأمة يجب أن تعيش وتخلد . وما أشد عذابنا نحن ، يوم نغدو فى عالم الأرواح ، محلقين مع الشمس فى السماء ثم ننظر إلى البناء الذى شيدناه فى عمرنا ، فنراه قد أسرع إليه الخراب والدمار ، لأننا عجزنا أو سهونا عن خلق جيل يخلفنا ، وينهض بالأمر من بعدنا .

« فدع المجاملة أيها الوزير ، إنك تدرك — كما أدرك — أننا لا نستطيع أن نقامر بهذه الشئون الجليلة . ونعرضها للخطر الجسيم . بأن ندع الأمور تجرى ، من غير رقابة أو عناية . حتى يدركنا الموت ، ولم نعد العدة لتأمين مصير هذه الأمة. »

قال الوزير : « الأمة بخير يا صاحب الجلالة ، فهى اليوم ترفل فى الرخاء والنعيم ، بفضل ما بذلته من جهود جبارة فى بسط العدل ورفع الظلم والضرب على أيدى العابثين . » .

أراد هامان بالضرب على هذه النغمة ، التى يعرف أن الملك يحبها ، أن يلطف من حدة الموقف . لأنه كان يخشى أن يبادر الملك باتخاذ قرار عجل ، أو خطوة لم تنل حظها من التدبير والتفكير ، فهامان قبل كل شىء رجل الحيطة والتؤدة ، والنظر ذات اليمين وذات الشمال ، وإلى أعلى وإلى أسفل ؛ وإلى الأمام والخلف ، قبل أن يخطو خطوة واحدة .

ولكن الملك فى ذلك اليوم كان فى شغل عن المدح والإطراء، وعن التقدير والتدبير : فقال : « لا تخدع نفسك يا هامان ، ولا تحاول أن تخدعنى . فإنك تعلم ، كما أعلم ، أننا لم نقض على قوى الشر ، بل ألزمناها أن تستتر وتتوارى . وهى جديرة أن تظهر ، وأن ترفع رأسها مرة أخرى ، إننا لم نخمد نيران الفتنة ، بل ألقينا عليها رماداً كثيراً ، وهى خليقة أن تعود إلى الالتهاب والاشتعال . إننا لم نمح الظالمين من الأرض . بل أكرهناهم على الاختفاء والانزواء . وهم حقيقون بأن يظلوا فى اختفائهم حتى تحين الفرصة المؤاتية ...

« واليوم أريد أن أتخذ قرارين خطيرين ، ولا بد لنا أن نمضى فى تنفيذهما فوراً . أولهما : أنى أريد منك أن تختار عدداً من أبناء حكام الأقاليم ، ممن تجاوزوا سن الطفولة ، وأشرفوا على طور الرجولة . أريد أن ينزلوا جميعاً فى القصور الملكية وأن يتلقوا العلم مع أبنائى وأبناء وزرائى وأعوانى . وعليك أن تصطفيهم وتختارهم ممن تتوسم فيهم النجابة والذكاء . فإنى أريد أن أعدهم ، لمناصب الحجابة والوزارة ، وقياده الجيش ، وتولى الحكم فى المقاطعات بعد آبائهم ... فما قولك فى هذا ؟ »

قال هامان : « رأى سديد أيها الملك . فإننا بهذا الإجراء، نستطيع أن نولى شئون الدولة والأقاليم رجالا قد بلوناهم ووثقنا بهم .»

قال الملك : « حسنا . أما الأمر الثانى ، فإنك تعلم أن فى كل من آنى وسينو عيوباً خطيرة ؛ فأما الأولى فقد استبعدناه عن الدولة وسنقطعه ضيعة عظيمة ذات مستنقعات وجزر لكى ينعم فيها وزوجه الليبية الشقراء ... أما سينو فملك ابن ملك ، ولكنه شديد الضجر ، سريع الالتجاء إلى القوة ، والاحتكام إلى السلاح . ولا شىء يصلح هذا العيب ، إلا أن أشركه معى فى الحكم بقية عمرى ، وأن أوليه الملك معى ؛ وأدربه على السياسة كما دربته على الحرب والقتال .

« هذه سنة جديدة ، أريد أن أسنها ، وسيدهش لها الناس أول الأمر ، ويعجبون من أن لهم ملكين ، لا ملكاً واحداً . يدينون لهما جميعاً بالولاء والطاعة ....

« لقد فكرت فى هذا الأمر طويلا ، حين رأيت أن السنة القديمة التى كنا نسير عليها ، تعرض العرش والدولة لأزمات وشدائد ، من الممكن اتقاؤها ، فإن الفتنة النائمة سرعان ما ترفع رأسها ، حين ترى الصولجان ينتقل من يد إلى يد ، والتاج

يزول عن رأس إلى رأس . وكثيراً ما انتهز المرجفون فرصة الانتقال هذه ، لإثارة الشغب ، وإيقاد النيران ؛ والسنة الجديدة التى أريد أن أسنها كفيلة بأن تقضى على الإرجاف . وأن تقطع حبل الفتن ... لأن وفاة الملك لن تترك العرش خالياً . ولن تكون هنالك فترة يتولى فيها ملك جديد عرش بلاده ، لأن الملك موجود ، والدولة قائمة دائمة ... فماذاترى؟»

أنصت الوزير إلى مولاه . وهو يدلى إليه بهذا الرأى الجديد ، ويشرح له هذه السنة المبتكرة . ولا شك أن الفكرة قد بهرت هامان بقوتها ، وأدهشته ببراعتها ... إن الملك بعد هذا العمر الطويل ، والجهاد العنيف المضنى ، لا يزال قوى العقل ، حاضر الذهن ؛ وما برح كما كان دائماً يرى الغرض الذى ينشده فى جلاء ووضوح ، ويتخذ إليه أقوم السبل وأنجع الوسائل . دون أن يبالى بالسنن القديمة ، والتقاليد الموروثة .

— وأطرق الوزير لحظة يفكر ثم قال : « إن للملك الرأى الأعلى ، والنظر الثاقب دائماً . وأنا فى حاجة إلى التروى والتدبر قبل أن أدلى لمولاى برأى فى هذا الانقلاب الخطير . »

قال الملك : « إن آفتك يا هامان هى هذا الإفراط فى

التروى والتفكير . فأنت مثل البقرة تطيل المضغ ساعات ، ثم تعود فتلوك ما مضغت . ما الذى تخشاه ؟ »

قال : « أليس هنالك من خطر ، فى أن نجابه الناس بأمر فيه خروج على ما اعتادوا ، وثورة على ما ألفوا . بعد أن جابهناهم بتنحية آنى ، وتولية سينوسرت ؟ »

قال الملك : « إن الناس لن تجد بأساً فى أن يتولى ابنى الملك ، وأنا بعد على قيد الحياة ، أهديه السبيل ، وأعرفه بالناس ، وأقيم بينه وبينهم أواصر الحب والولاء . أما حرمان آنى وراثة العرش ، فإن المخلصين من النبلاء والحكام ، سيغتبطون لهذا ، وسيرون فيه الخير ، وإذا كانت العناصر الشريرة تحس من خيبة الأمل ما يدفعها إلى ركوب الفتنة . وإثارة الشغب ، فما أخلقنا أن ننتهز الفرصة ، ونحطم رأس الأفعى ونقضى على الشر القضاء الأخير .

« إنى لا أريد أن أسرف فى إساءة الظن بالناس ، ولا أريد أن أتكلف الكشف عما كمن فى الضمائر . وما دام الناس يظهرون الولاء ، ويبدون المودة ! فإنى سأجزيهم الخير على ولائهم ، وأبدى لهم السرور والرضى . وعلى الرغم من يقينى أن

كثيراً منهم يضمر غير الذى يظهر ، ويطوى خلاف الذى ينشر ، فإنى لن أتعمد نكأ الجرح أو كشف الغطاء عما فى الضمائر . لعل تكلف الولاء أن ينقلب مع الزمن ولاء ، ولعل التطبع أن يستحيل مع الأيام طبعاً .

« ولكن الويل كل الويل لمن يدبر الدسائس فى الخفاء ، ويطبخ الجرائم فى غسق الليل لكى يعاجلنا بها على غفلة منا ، ويسلب البلاد أمنها وراحتها . أولئك الذين لن تأخذنى فيهم رأفة ولا رحمة ، وأولئك الذين أحمد لهم فتنتهم ، لأنها مكنتنى من رقابهم ، وساعدتنى على أن أتقرب إلى الآلهة بسفك دمائهم ...

« إنك تعلم يا هامان أننى منذ استقرت أمور هذه البلاد ، وسادها الأمن والهدوء آثر اللين على العنف ، وأفضل أن تكون الطاعة والإخلاص عن حب ومودة ، بعد أن أحرزتهما عن خوف ورهبة . ويخيل لى أنى بهذه الوسيلة قد اكتسبت ولاء العدد الأكبر من الأشراف والنبلاء فى طول البلاد وعرضها . فهل تظن حقيقة أنه لا يزال بينهم من يسارع بالكيد لى ولأسرتى »؟

قال الوزير : « إننى واثق يامولاى أن الأشراف وحكام الأقاليم جميعاً ، لا تحدثهم اليوم نفسهم بشر يقومون به من

تلقاء أنفسهم ، ولكن قد يكون بينهم من يساعد الشر إذا كان البادئ به شخصاً سواه .

قال الملك : « كأنك ترى أن هنالك عصابة أخرى ، قد تكون هى البادئة بالشر ! »

قال : « أجل . إنى إذا ضمنت لجلالتكم حكام الأقاليم، فإنى لا أستطيع أن أضمن إخلاص من فى القصر ، ولدى ما يحملنى على الظن بأن الأميرة الليبية من أبرع النساء فى حياكة الدسائس . وهى فوق هذا امرأة بعيدة الأطماع ، لاتريد أن تنسى أنها من سلالة عريقة فى الملك . »

قطب الملك جبينه ، وضغط بيمناه على صوبجانه ضغطاً شديداً ، واتسعت حدقتاه حتى صارتا فى ضعف حجمهما . ثم قال وهو يعض على نواجذه : « أذكرتنى نساء القصر ولم أنسهن؛ إن كيدهن عظيم .. لأهون على الملك الجبار أن يحكم القطر من أقصاه إلى أقصاه ، فيدين له الناس جميعاً، كبيرهم وصغيرهم ، بل ويخضع الوحش والطير والدواب .. كل هذا أيسر وأهون عليه من أن يسوس القصر الذى يعيش فيه ، والأشخاص العديدين ، الذين يستظلون بظله ، ويأكلون من فيض يديه .

« وهذه الأميرة الليبية ذات الوجه المقَشَّر ، ما مُلْكها هذا وما قومها ؟ إنْ هم إلا رعاة أجلاف ، يطعمون اليربوع ويشربون الماء الآسن ، وقد جعلها حمق آنى وسذاجته أميرة بعد أن كانت أمة ذليلة . إن زواجها من « آنى » قربها منى ، ولكن لتحترس هى ومن معها . فإنى بعد خليق أن ألقى بها إلى السباع .

« لقد شغلنى يا هامان حكم القطر عن حكم القصر . وهى جريمة كثيراً ما ارتكبها الملوك من قبلى . ومع هذا ، فإنك تستطيع أن تترك أمر القصر لى ... أما أنت فإنى أريد منك أن تستعد لحفلةالتتويج ،أريد منك أن تبعث الرسل إلى حكام الأقاليم ، وتدعوهم إلى أن يحضروا هنا بعدخمسين يوماً، وابعث رسولا إلى ميدان الحرب ،بأن يعجل ولدى سينو بالعودة . إنى أريد أن أرى حكام الأقاليم تركع بين يديه ، وهو جالس بجانبي على العرش . »

* * *

قال يونس : « ذلك أيها الإخوان الحادث الجليل ، الذى يشغل العقول ، ويقض المضاجع ، ويملأ المدينة حركة

ونشاطاً ...

قلت : « أواثق أنت أن هذا كله قد حدث . »

ـ لقد يكون هنالك اختلاف يسير فى الألفاظ ، أما الحقائق التى تعبر عنها تلك الألفاظ ، فليس لدى ذرة من الشك فى أمرها .

ـ ولكن أتظن الأمير آنى يخرج على إرادة والده ، ويشترك فى تدبير مكيدة أو دسيسة ؟

ـ كلا . وهذا ما أريد أن أؤكده لك أنت ياسنوحى بوجه خاص ، إن آنى أزهد الناس فى الملك والوراثة ، وإذا كان هنالك دسيسة تدبر ، فإنه لن يسمح له بأن يطلع عليها . ولهذا السبب يريدون منه أن يسافر إلى إحدى الضياع البعيدة . وقد طلبوا منك أن تسهر على حماية زوجه . فاحذر يا سنوحى ، ولا تقامر على الجهة الخاسرة ، واذكر أن ولاءك للعرش مقدم على كل ولاء !

فى تلك اللحظة تذكرت اليمين التى أقسمتها فى المستنقعات. وأنها لم تكن يراد بها مجرد واجب يؤدى . فعجبت من أمرى ، وأخذت أفكر كيف يكون شأنى إذا تعارض ولائى للعرش

ولأسرة الأمير ! إنى لم أقسم يمين الولاء للملك ، ولكن هذا أمر مفروغ منه ، والولاء للملك فرض لا يحتاج إلى قسم ...

أخذت الهواجس تتلاعب بى. وأحس رفيقاى بأنى وجمت وجوماً شديداً . يوشك أن ينقلب إلى كآبة . فقدم لى صعب قدحاً من الجعة . وناول يونس طنبوره واستحلفه أن ينشدنا آخر شعر ألفه ، على ألا يكون مدحاً فى ملك أو أمير ، أو عشقاً فى جارية ..

قال يونس: « ويحك إذا لم نمدح أو نعشق ، فماذا نفعل؟»

ــ تستطيع أن تتفلسف . أو تصف النيل ، أو الخمر ، أو هذه السماء التى شاهدناها . ومثلك لا يُعييه الموضوع ..

ــ إنّ الإبداع فى موضوع جديد ليس من البراعة فى شىء وإنما البراعة أن تغنى لحنا جديداً فى موضوع قديم . ولكنى لا أريد أن يختم حديثنا هذا المساء بالغناء . وأظنك يا صعب تريد أن تلتمس تسلية لصديقنا سنوحى . غير أنى لا أريد منه أن يتسلى أو ينسى ، بل أريد أن يتذكر ويهتم .

وساد الصمت بعد ذلك ساعة . ثم قلت : « لنعد إلى الضفة الغربية . »

فنهضنا جميعاً . وأخذنا ننحدر فى بطء إلى حافة النهر ، وركبنا زورقنا ، وقد برد المساء . فلم نلبث أن بلغنا الشاطىء الغربى ..

وانطلق كل من يونس وصعب إلى داره ؛ وعدت إلى منزلى ، لأقضى ليلة أخرى فى هم وسهاد ....

فى تلك الليلة وضعت على الوسادة رأساً تتنازعه العواصف الهوجاء .. ولم يكن الخاطر المفظع ، الذى أخذ يلدغنى كالحية الرقطاء ، فيطرد عنى النوم والأمن ، هو الأميرة وما قد تفعل أولا تفعل ؛ بل شقيقتها بتسى ؛ وما قد يكون من أمرها وأمرى يوم يصبح سينو ملكا مطاعاً .

إن هذا هو الخاطر الذى سهد جفنى الليالى الطوال ...

– ٧ –

حل موسم الحصاد ، فحيثما سرت فى الريف ، ترى القمح يقطع بالمناجل ، ويكدس فى الحقول ، ويرسل الزراع إلى الملاك حزمة منه، لكى يطلعوا على الغلة الطيبة التى جادت بها

أرضهم . وقد اكتظت طرقات الريف بالحمير ، تحمل الأكداس العظيمة من القمح ، فتنقله من الحقول إلى البيادر المنتشرة حول القرى ؛ وهناك تشهد أجمل مناظر الريف جميعاً . إذ ترى الثيرة الحمراء ذات القرون المليحة منهمكة دائبة تدوس القمح بأقدامها المتينة ، فتفرق بين القمح والتبن ، وهى تسعى ذهاباً وإياباً ، ورأسها الجميل يهتز من أعلى إلى أسفل ، ثم من أسفل إلى أعلى.

كانت سنة حصاد ضخم وغلة وافرة . وقد امتلأ الريف بشراً وتفاؤلا ، وازداد الزراع سروراً عند ما أصدر أميني أمراً إلى الحكام بأن ينقصوا من الضرائب هذا العام . لكى يهيئ لتتويج الأمير سينو جواً من الرضى والارتياح يعم جميع أنحاء القطر.

ونال العاصمة قسط من هذا المرح المنتشر فى البلاد ، وكان من جملة الحفلات التى أقيمت مسابقة الرماية التى كنت أتوقعها منذ حللت العاصمة . والتى لم أهمل الاستعداد لها يوماً واحداً . وقد نادانى الملك قبيل المسابقة وتلطف إلى وقال لى : « ويحك يا ابن سنوحى ، إن يوم الحساب قد حل . فأثبت لهؤلاء الشماليين أن الجنوب ينبت السواعد المتينة ، والبصر الثاقب . »

ولقد صاحبنى فى ذلك اليوم توفيق لم أكن أتوقعه كله ؛ فلقد رميت عشرة أسهم كما فعل جميع المتسابقين . وكان الهدف

منصوباً على الضفة الشرقية ، وإلى جانبه شخص يراقب السهام ويعد الإصابات ، وهو مستتر وراء جدار يقيه من الرميات الطائشة — وما أكثرها !

فى ذلك السباق وصلت جميع سهامى إلى الضفة الشرقية . وسبعة منها أصابت الهدف المنصوب . فكان فوزاً لم يوفق أحد إلى خير منه ، اللهم إلا جلالة الملك نفسه. فإنه وإن لم يكن من المتسابقين وقف فى النهاية وأمسك بقوسه الهائلة ، ورمى العشرة الأسهم بسرعة ، فوقعت كلها فى وسط الهدف ، لم تشذ منها واحدة .

تلطف جلالته ودعانى إلى مقصورته ، وهنأنى بنجاحى ، ومنحنى على سبيل المكافأة ، سهماً صغيراً من الذهب الخالص. وقال لى إنه مسرور لفوزى وإن من الواجب على أن ألتحق بخدمة الأمير « سينو » فإن مواهبى ضائعة فى معية الأمير آنى ، الذى لا يعرف إلا صيد البط ، ورمى النيازك وأولى بهذه المقدرة الفائقة أن تجرب فى صيد الأُسد ومنازلة السباع . « إن ولدى سينو سيعود إلى العاصمة قريباً . وسألحقك بحاشيته بمجرد عودته . »

وبعد فإن من الأيام ما هو شؤم كله ، منذ تطلع شمسه فى الشرق ، حتى انحدارها فى الغرب ، ومنها ما هو يمن وبركة فى أوله ونهايته ، وفى كل ساعة من ساعاته . وفى كلا الحالين تمارس

النفس لوناً واحداً تألفه . خيراً كان أو شراً . ولكن هنالك أيام مختلطة مختلف آخرها عن أولها . تطالعك فى الصباح بوجه عابس متجهم . ثم تنبسط أساريرها فجأة وتأخذ فى الابتسام ، ثم تضحك حتى تبدو نواجذها : ثم تقهقه حتى تملأ الفضاء مرحاً صاخباً .

هذه ثلاثة أنواع من الأيام . أما الرابع فإنه كيومنا هذا الذى بدأ باسماً ضاحكاً . وانتهى فى ظلام حالك . تحتله مأساة مفظعة مفجعة : ليس لها فى حياة مصر نظير . وذلك أسوأ الأيام جميعاً ...

إن ذلك اليوم الذى كانت المدينة فيه يغمرها الفرح ، ويشملها العبث والمرح : واحتشدت فيه الجموع لتشهد تسابق الرماة . ذلك اليوم نفسه قد تلته ليلة ليلاء هب فيها الملك أميني من نومه منزعجاً ، لأن عصبة من الخونة اقتحمت داره لكى تفتك بشخصه المقدس .

إن كثيراً من الناس يعلم أن للملك أميني أسداً تحرسه إذا نام . فلا يستطيع أحد أن يدنو من حجرته وأن هذه الأُسد تطلق فى الليل ، فلا يدنو من القصر شخص غريب إلا تعرض للموت المحقق . ولكن الناس تنسى أن المكلفين برياضة هذه الوحوش هم عبيد من الليبيين ، وأن كثيراً من حراس القصر عبيد من الليبيين أيضاً . إن هذا الاطمئنان العجيب إلى الغرباء ، كاد أن يكلف الملك حياته ، ويفقد الأمة المصرية أثمن شىء لديها .

لقد رأينا الملك فى حديثه مع وزيره هامان ، غير مطمئن لما يبدو فى ملكه من الهدوء الظاهر ويخشى أن يكون تحت الرماد جمر يشتعل ورأينا الوزير فى أدب ولباقة يحذره القصر ونساء القصر . ولكن الملك الذى لم يصادف فى حياته غير النجاح المطرد ، ولم تعترضه عقبة إلا أزالها فى مثل لمح الطرف ، لم يكن يتوهم أن دسيسة لاغتياله تدبر فى قصره . وأن الشر قد يتفاقم حتى يضطر لأن يدافع الموت بيديه . لذلك لم يسىء الظن فى حراسه وأتباعه ، بل كان يظن أن هيبته كفيلة بأن تشل من خوفها الأيدى . وتجف من خشيتها الأذرع ... ولست أشك فى أن للمليك نظرات تبعث الرعب فى قلوب الجناة ، وتقلم أظفار البغى ، فى أكثر الأحيان ، ولكن قد يكون البغاة قوماً غلبت عليهم الرعونة ؛ أو كانوا ممن طاشت أحلامهم . أو لعبت بألبابهم أطماع شريرة . أو كانوا ممن تصرفهم وتعبث بهم إرادة عنيدة ، قد امتلأت حقداً وضغناً . فمن الجائز فى مثل هذه الحال ، أن يصاب الإله الطيب بأذى شديد . إن الدابة الحمقاء قد تفتك مع أنها لا تعقل ، بل هى تفتك لأنها لا تعقل ... وما كان أولئك الشريرون الذين اجترأوا على الاعتداء على شخص الملك المقدس ، إلا

دواب لا تعقل : تسيرها يد آثمة وإرادة شريرة .

في تلك الليلة الليلاء كان الملك متعباً بعد مجهود يوم طويل : ولكنه برغم ذلك دعا وزيره هامان ، وتحدث إليه في أمور رأى أنها لا تحتمل الإرجاء إلى الغد ؛ ثم أوى إلى فراشه متعباً ، واستسلم لنوم هادئ ولكنه نوم خفيف جداً .

وانتصف الليل ، والسكون يشمل كل مكان ، والهدوء باسط جناحيه على كل ركن وكل حجرة في القصر الملكي . ثم انقطع السكون فجأة ، وارتفعت في وسط الليل صرخة مزقت الفضاء . فنهض الملك منزعجاً ، ورأى على ضوء المصباح حاجبه الأكبر المصري يدخل من الباب مترنحاً ، ثم يخر مضرجاً بدمه ، ومن ورائه وجوه شريرة تبدو في ضوء المصابيح الضئيل وهي تعدو نحو حجرة الملك .

لست بحاجة لأن أسهب هنا في وصف ذلك الحادث العجيب ، فإن الناس جميعاً لا تزال تذكره وتتحدث به . . والكل يعرف كيف رد الملك البغاة على أعقابهم بأن ألقى عليهم تمثالا من الرخام ، ثم أعقبه بتمثال من النحاس ، ثم تناول فأسه وانقض على المعتدين يضربهم يميناً وشمالا . وقد مات منهم من الرعب أكثر ممن قضى نحبه قتيلا بضربة فأس أو خنجر .

وقد تحمل الملك العبء الأكبر فى هذا القتال ، ولكنه لم يكن يقاتل منفرداً ، بل كانت هنالك أيضاً عصبة صغيرة من أبناء طيبة ، أبلت فى هذه المعركة الغريبة أحسن البلاء ، وأمكن بمساعدتهم تطهير القصر من أجساد القتلى ، ودمائهم وأشلائهم .

وأنا ما الذى كنت أصنع فى تلك الليلة ؟ هل كان لى علم بهذه الفتنة المنكرة ؟ لقد اتهمنى تجار الشر فيما بعد بأنى كنت ملماً بكل شىء ؛ وأنى من المتآمرين مع الأميرة الليبية وعصبتها؟ وإلا فكيف استطاعت المصادفة المحضة أن تسوقنى إلى قصر الأميرة فى تلك الليلة ، وأن تدفعنى إلى مصاحبتها هى وحاشيتها من العاصمة إلى الحدود الغربية ، وبذلك ساعدت العصابة على الهرب والإفلات من القصاص ؛ واللحاق بالقبائل الليبية ؟

إننى لست أملك أمام هذه التهمة القاسية سوى أن أقسم بالآلهة جميعاً أننى برىء نقى الصحيفة ، طاهر الذيل . ولئن كانت ظواهر الأمور قد تألبت على لكى تجعل طريق البراءة والنجاة ضيقاً عسيراً ، فلست أول متهم اتفقت ظواهـــر الأمور على أن تخدع أبصار العدل عنه ، وتضلل سبل الحكم عليه .

لقد كنت تلك الليلة فى دارى نائماً وكانت من الليالى القلائل التى أمكننى فيها أن أغمض جفنى على نعاس هادئ

عميق ..فأيقظنى من النوم قبيل الفجر رسل الأميرة نورا ، فخرجت فألفيت قافلة تتقدمها الأميرتان ، ومن خلفهما عدد كبير من الأتباع . كلهم من الليبيين . كانت كل من الأميرتين راكبة على مقعد وثير . مثبت على ظهر حمارين . حسب الطريقة المألوفة . وكان هنالك دواب كثيرة أخرى تحمل الزاد والمؤونة . كأن الركب مزمع سفراً طويلا . والنهر قليل الماء فى ذلك الوقت ، والقنوات جافة تماماً : فلم يكن بد من أن يستخدم الركب الحمير . وكان الرجال يمشون على الأقدام ، وقد لاحظت فى سواد الليل أنهم جميعاً مدججون بالسلاح .

لم أستطع أن أفهم من هذا كله شيئا . فلم يسعنى إلا أن انحنيت محيياً أمام الأميرتين ؛ ووقفت أنتظر ، لعل كلمة تقال فتكشف القناع عن هذا المظهر الغريب . ولكن الأميره لم تزد على أن قالت : « إننا ذاهبون فى رحلة قصيرة نحو الغرب ، ونريد أن تصحبنا ... ولست بحاجة لأن تستحضر شيئاً . »

ولكنى برغم هذا أسرعت باستحضار قوسى ونصالى ، وفأسى ورمحى ، واستكملت عدتى : ومشيت إلى جانب الأميرة . واتخذنا طريقنا نحو الغرب كأننا نسعى إلى الصحراء من أقصر سبيل .

كان الليل يظلنا ونحن نبتعد عن العاصمة ، وقد غادرناها

دون أن يعترض طريقنا أحد ؛ ولو أننا صادفنا أحدا لما كان فى مظهرنا ما يدعو إلى الريبة ، فليس بمستغرب أن تخرج الأميرة وحاشيتها قبيل الفجر ؛ للتنزه على حافة الصحراء ، ثم تعودقبل أن ينتصف النهار . ولم يكن فى كل هذا ما يقلقنى غير أمر واحد . وهو أن الأمير آنى لم يكن معنا ، وقد أجهدت فكرى ، أحاول أن ألتمس سبباً لغيابه . فلم أهتد إلى سبب مقبول ، وتوهمت آخر الأمر أن الأمير قد سبقنا ، وأنا لاحقون به . فزال عنى القلق عندما خطر هذا الوهم ببالى . . .

لم يلبث الفجر أن طلع ، وكنا نسير نحو الغرب ، مع انعطاف يسير إلى الشمال ، وقد لاحت لنا أصنام منف وتماثيلها من بعيد ، يحيط بها ضباب شاحب اللون ، فتبدو من ورائه كأنها أشباح ضخمة مبهمة ، فإذا أطلت النظر إليها ، خيل إليك أنها تتحرك نحوك ، وذلك حين ينجاب الضباب عنها قليلا .

وبعد سويعات قلائل ، طلعت الشمس من ورائنا ، فأشرقت على قطار غريب مريب ، يتجه نحو الغرب . كأنه يهرب منها ، ومن ضيائها ، وقد جعلنا ظلنا أمامنا ، وأخذنا نتبعه ونقتفيه . واختلست النظر إلى وجه الأميرة نورا ، فإذا هو يكسوه الشحوب . وقد هبط الخدان ، ونتأ عظمهما واتسعت العينان

فوق اتساعهما المألوف . وكان يحيط بكل عين دائرة سوداء ، وغضون لم أكن ألحظها من قبل . . . إن أمراً خطيراً قد حدث من غير شك ، فقد وثبت سن الأميرة أعواماً طوالا منذ رأيتها بالأمس . وبتسى ما خطبها ؟ إنها تخفى وجهها عنى كلما حاولت أن ألقى عليها نظرة خاطفة. . وكأنى أرى عينيهامحمرتين من أثر البكاء . فما أشد تلهفى لأن أرى اللثام يرفع عن هذا كله! ولكن أحداً من الركب لم ينبس بكلمة ، والكل يمشى مطرقا صامتا.

وفى وسط الضحى ، بلغنا حافة الصحراء ، وأبصرنا الهرم المدرج عن يميننا ، ثم لم نلبث أن هبطنا مع الظهر واديا مطمئناً وسط هضاب الصحراء . فلم نقم فيه لحظة . حتى برزت إلينا — من حيث لا أدرى — عصابة أخرى من الناس . لم أكد أراهم حتى انبريت لهم ورمحى فى يدى إذ ما شككت أنهم من قطاع الطريق . ولكن الأميرة صاحت بى أن تمهل فهؤلاء أصدقاؤنا .

وتقدم هؤلاء الأصدقاء فركعوا بين يدى الأميرة وخيل لى أنهم يتجاوزون المائة عدًّا ونظرتْ إلى الأميرة وقالت : «ياسنوحى لقد أبلغتنا مأمننا ، وتستطيع الآن أن تعود أدراجك ! إن فى وسعى كما ترى أن أسوقك معى إلى قومى ، عبداً رقيقاً ذليلا ؟ كما ساقنا رجالكم من قبل عبيداً وإماء! فإنكم يا أبناء الطين

لا ترعون الحرمات ، ولا تعرفون لامرئ كرامته . ونتزوج من أمرائكم ، وهو شرف نوليه إياكم وإياهم . فيحرمهم ماككم وراثة العرش لزواجهم منا . أقول إن بوسعى أن أسوقك معى . ولكنى لا أجازى الإحسان بالإساءة ، ولقد كنت لنا خادماً أميناً ، وفوق ذلك فإنى أريد منك أن تبلغ مليكك رسالتى الأخيرة : قل له إنى سأعود قريباً ، ولن أكون هذه المرة أسيرة ذليلة ، بل أميرة نبيلة تتقدمنى آلاف الرماح ، تكتسح السهول والبطاح ، قل له إنى فى ذلك اليوم لن أخطئ كما أخطأت بالأمس . »

هذه هى الكلمات العجيبة التى طرقت مسامعى ، فتصاعد الدم إلى وجهى ورأسى ، وتملكتنى دهشة هائلة ، كادت أن تفقدنى الرشاد .

وغودرت وحدى وسط هذا الوادى ، وقد ملكنى الوجوم بحيث لم يستطع جسدى ولا بصرى ولا عقلى حراكا . . ولعلى قد مرت بى ساعة وأنا فى هذه الحال ، ثم عدت متثاقلا موليا وجهى نحو الشرق ، وكنت أتعثر فى مشيتى كأنى أسير على غير هدى .

ولم يزايلنى الوجوم ، حتى اقتربت من العاصمة ، فإذا يونس يسير للقائى فقص على وقصصت عليه كل شىء .

٨

الآن وقد أشرفتُ على الشطر الأخير من قصة عمرى المضطرب فإنى أريد أن أمسك بيدك ؛ وأعرض أمامك الصور الأخيرة ؛ لكى تراها وهى تمر بين يديك مر السحاب .

انقضت شهور طويلة على الحوادث التى سردتها من قبل ؛ وألفيت نفسى فى مكان آخر على حافة الصحراء ؛ جالساً فى خيمتى ، وقد أظلم الليل ؛ ولمعت النجوم فى السماء ؛ وقد أخذت أستذكر الماضى ، وأصور لعينى الأحداث الجسام ، التى مرت برأسى .

كاد لى الدهر فأجاد الكيد ؛ ونصب من الوهم شراكا متينة لصيدى ، لولا رحمة الآلهة وعطف الملك ، لأطبقت على ، وأوردتنى موارد الهلاك ، ولكن أمينى أبى أن يصدق أنى ارتكبت خيانة أو إثما . وقد أصغى إلى حديثى بانتباه واهتمام ، وأنا أفضى إليه بكل شىء جرى ، دون أن أحذف حادثاً أو أنقص كلمة . فلم يتسرب عنده الشك فى لفظ نطقت به . إنه يعرف فى أسرة سنوحى النجدة والولاء ؛ وما كان لأحد أبنائها

أن يتخلف حين تقصده أميرته ، التى كلف رعايتها وطاعتها ، فى أى أمر من الأمور ، التى تفرضها الخدمة والإخلاص . ولم يكن فيما طلبته الأميرة شىء يثير الريبة . ولئن كان فى عملها ما يبعث الشك ، فما ينبغى لحاجبها وحارسها أن يأذن لمثل هذا الشك أن يخامره أو يجد إلى خاطره سبيلا .

أجل . إن أمينى كان بى براً رحيما ؛ ولكنى — ويا للأسف — لا أستطيع أن أقول هذا عن الأمير سينو ، الذى لم يلبث أن هبط العاصمة ، وأقيمت له الحفلات الضخمة . وعقد التاج المزدوج على مفرقه . وسجدت بين يديه وفود البلاد المصرية من أقصى القطر إلى أدناه . فأصبح سينوسرت ملكا جباراً إلى جانب أبيه الملك الكريم . . . حاولت بجهدى أن أكسب رضى الملك الشاب ، فكانت محاولاتى ترتد كالسهام الطائشة ، وظل نافراً منى ، مزوراً عنى ، وأعيتنى الحيل ؛ وأوشك حبل الأمل أن يتمزق .

ثم ابتهجت سروراً — وإن لم يكن فى الأمر ما يبعث السرور — حينما سرنا معاً لمحاربة الليبيين ، لعل الفرصة أن تتاح لى فى ميدان القتال ، فأكتسب إعجاب الملك الشاب .

وحسن تقديره ، إن كان قد قدر لى ألا أفوز بعطفه وحبه . ولكنى هنا أيضاً لم أكن أكثر حظاً منى هناك . . . ولماذا أبغضنى سينو كل هذا البغض ؟ أتراه ما برح يظن أن لى يداً فى هرب الأمير آنى . وهو يعلم الآن أنه لم يهرب ، بل التحق بأمه فى الشمال ، ويعلم أيضاً أن الأمير كان يجهل الدسائس التى تدبرها زوجته الليبية ؟ أم تراه يحقد علىّ لأنى سمحت للأميرة الفاتنة بتسى بأن تغادر أرض مصر فى صحبة أختها وقد كان يمنى النفس برؤيتها بعد عودته من أرض واوات ؟ . . أم تراه قد أسر إليه الوشاة أمر حبى لها ، وشغفى بها ؟ إن كان هذا هو الخطب ، فإن الداء عضال ، ولا يشفى منه غير مر السنين .

وعندما خطر لى هذا الخاطر ، أدركت أن أيامى فى خدمة البلاط مرهونة ببقاء أمينى على العرش . وستكون الحياة بعده جحيما ، وعذاباً أليما .

لم يعد أمامى بعد هذا مخرج إلا أن أبذل دمى بإسراف وتبذير فى هذه الحرب الليبية الشعواء ، لعل سهماً من سهام « الطحين » المسددة أن يكون فيه الشفاء من هذا البلاء .

إن الأميرة الليبية لم تقصر فى تنفيذ وعيدها ، فلم يمض على

فرارها بضعة أشهر ، حتى وردت الأنباء بأن الصحراء الغربية باتت كعش الزنابير دوياً وهرجاً ومرجاً ونشاطاً ، وأن لا بد من المبادرة بإرسال جيش كبير على الحدود الغربية . .

ويتألف الليبيون — كما هو معروف — من شعوب وقبائل شتى ، أكبرهم عدداً وأعظمهم جاهاً من غير شك هم الطحين قوم الأميرة الشاردة . يليهم فى القوة والبأس الطميخ ، ثم الريبيون ، ثم المشواش، ثم العمنت ، ثم قبائل أخرى أضعف شأناً وأقل خطراً . هذه الجماعات كانت تشن الغارات على تخوم مصر الغربية منفردة فى الغالب . وكان من السهل الميسور ردها على أعقابها ؛ ولكنها فى هذه المرة استطاعت أن تأتمر وتتفق على مهاجمة مصر مرة واحدة . وهو أمر يشهد لهذه الليبية بالبراعة ، المثيرة للدهشة والإعجاب .

ولكن أمينى أيضاً لم يهدأ ولم تغمض له جفن ؛ بل تملكه غضب سماوى مقدس ، لم يلبث أن استحال إلى قوة شامخة وعزم جبار . فإذا هو يصل الليل بالنهار ، لكى يجند جيشاً ضخماً ، لم تشهد ربوع النيل له نظيراً . . .

وتولى الملك الشاب قيادة هذا الجيش العظيم ، وقلده أمينى

لواء القيادة فى حفل هائل جمع الآلاف من الجند ورجال الدولة . وفى ساعة الرحيل صاحبنا الملك مودعاً بضعة أميال ؛ ثم منحنا بركته : وبركة الآلهة جميعاً ! ووقف ينظر إلينا ونحن نبتعد شيئاً فشيئاً نحو الشمال قبل أن نميل إلى الغرب . . .

ولم يكتف الملك الجليل بهذا التوديع ؛ بل أرسل بعد بضعة أيام رسولاً يحمل إلى ولده الملك الشاب ، رسالة تتضمن تلك الوصية الشهيرة ، التى يزوده فيها بنصائحه الغالية . والذى أخشاه أن هذه الوصية تحمل فى ثناياها طابع الغيظ والكمد . والنقمة على الذين ارتكبوا تلك الخيانة المزرية . فهى متأثرة بظروف الزمن الذى كتبت فيه .

كتب الملك إلى ولده يقول : « اليوم قد غدوت ملكا وإلها . فأنصت إلى كلامى ، وألق إلىّ انتباهك ؛ حتى تصبح أهلا لأن تحكم الأرض ومن عليها ، والأنهار وشواطئها ، ومايجرى فيها من ماء وما يسبح فيها من حيوان .

« احذر الأتباع والخدم ، ولا تجعلهم يقتربون منك بحيث تزول الفروق ، وتنمحى الكلفة ؛ بل أقم بينك وبينهم الحجب حتى يعرفوا قدرهم ، ويلزموا مكانهم ، أوْلِ ثقتك بنى مصر

عامة ، وأبناء الصعيد خاصة ، ولا تسلم أمرك إلى أجنبي لم يشرب من مائنا ؛ ولم يرع فى مرعانا . . . احفظ الشطر الأكبر من نفسك لنفسك ؛ ولا تبذلها للأخ وإن بدا لك أنه معدن الإخلاص . ولا للصديق ، وإن ثبت لك أنه آية الوفاء ؛ وأقلل ما استطعت من الخلطاء ؛ فإن مقام الملك أسمى من أن يتعرض للابتذال ، أو يستهدف للاستهتار .

« إذا غفت عينك ، فلا تدع روحك تغفو ؛ وليكن من نفسك حارس على نفسك ، وأقم من قلبك اليقظ راعياً يسهر عليك . فى يوم البلاء تقل الأنصار وتتضاءل الأعوان .

« لقد طالما أطعمت اليتيم ، وأجزلت الهبات للفقير ، وكسوت العاري ، وأغثت الملهوف ، وانتقمت للمحروم ممن كان سبب حرمانه ، وأمسكت بيد الضعيف المسكين حتى بلغ مأربه ، ونال أمانيه فى الحياة . والأسير الذليل أطعمته وآويته ، وقربته وأدنيته ، وكنت أستطيع أن أطعمه المنون وأسقيه الهلاك ، وليتني فعلت !

« إن ما لقيت من النكران والعقوق ، وما جوزيت به من الكفر والجحود لجدير بأن يصم بنى الإنسان جميعاً بعار لا يغسل

وتدنيس لا يمحي . إن الأفواه التى أطعمتها عضتنى بأنيابها الحادة ، وأضراسها السامة . والأرجل التى انتعلت بإحسانى ، سعت فى هلاكى ودمارى. والأجسام التى كسوتها الكتان الناصع الجميل ، انقضت على للفتك بى ، وأنا الذى منحتهم العيش والحياة.

« إنهم لم يرعوا حرمتى ، وأنا رب العرشين ، وحاكم البر والبحر ؛ تمثالى منصوب فى كل دار ، تقرب إليه القرابين ، وترفع إليه الدعوات . والعيون جميعاً تتطلع إلىّ لأنها تعلم أنى محيي القطر ، ومطهره من الفوضى ، وموطد أركان العدل والإنصاف فيه . . ومع هذا كله — ومع مكانتى الكريمة فى نفوس شعبى — قد اجترأ اللئام على أن يتآمروا فى الخفاء على قتلى ، دون أن يسمع أحد أو يبصر شيئا .

« دبروا جريمتهم ، لكى يرتكبوها ، مستترين بظلام الليل ، ومتدرعين بدرع الغدر والخيانة . . ومن قبل كانوا يبدون الابتسام والذل والخضوع ، فى تلك الليلة السوداء كنت متعباً فتناولت طعام العشاء ، ورقدت على فراشى ألتمس الراحة والنعاس فلم يكد الكرى أن يمس جفونى ، حتى سمعت صوتاً كأنه قعقعة السلاح ، وشخصاً يستصرخنى ، فانتبهت منتصباً كأنى حية

الصحراء . . وأدركت فى مثل لمحة العين أن الفتنة قد رفعت رأسها البشع ؛ وأن الشر أقبل لاغتيال شخص ، من حقه أن يقدس ويكرم .

« لم يكن هناك مكان للأسى والأسف ؛ بل تناولت فى سرعة البرق سلاحى ، وقاتلت اللئام منفرداً . فجرى دمهم الدنس فى الحجرات ، وتساقطت أشلاؤهم على البسط ، ولاذ من استطاع منهم بالفرار . ولولا ظلام الليل ، الذى لا تجدى فيه المصابيح الضئيلة ، لما استطاع هارب أن ينجو من يدى تلك الليلة .

« إنهم قد أقدموا على عملهم المنكر ، قبل أن أجمع البلاط والنبلاء والأشراف ، وأجلسك معى على العرش . اقترفوا جريمتهم وأنا أعزل من السلاح ، وأعزل لبعدك عنى . ولو أنك كنت إلى جانبي تشاطرنى العرشين والتاجين ، لما اجترأ الأنذال على ارتكاب عدوانهم الشنيع .

« إن النساء قد دبرن هذا الكيد ، وأشرفن على تنفيذه ، وشر الدسائس ما نبت فى دارك ، تحت سمعك وبصرك ، وأقتل السهام سهم جاءك من الجهة التى حسبتها أمناً وسلاما .

« وشاءت الآلهة أن تحفظنى وترعانى كما حفظتنى من قبل .

وما كانت الآلهة التي سدّدت خطاى وأمسكت بيدى ثلاثين عاماً : لتذرني فريسة لحقد الأوغاد وكيد النساء . . . وأنا الذى بسطت يدى على الحدود الجنوبية؛ ثم انثنيت فاستوليت على الدلتا ؛ ووحدت القطر تحت لوائى ، وأجريت فيه العدل والأمن بسطوتى وبأسى ، وبكرمى وحسن رعايتى .

« أنا الذى أنبت القمح والشعير ، حتى أحبنى إله الزرع والشجر . وحيانى النيل حيثما ذهبت ، وأينما نزلت ؛ فى عهدى وتحت حكمى لم يعرف الناس جوعا ولا عطشاً . وقد سهرت لكى يناموا ، ونصبت ليستريحوا ، وحاربت ليأمنوا .

« لقد رضت السباع الضارية ، وفتكت بوحوش البر والبحر ، ونهضت إلى بلاد النوبة ، فأخضعت واوات ، وهزمت ماتوى ، وألزمت أجلاف البدو أن تسعى كالكلاب ، مطأطئة رءوسها ، مغمضة جفونها

« وكما شيدت للحرب صرحاً عاليا ، بنيت للسلم بناء مشمخرّا فشيدت قاهرة القطرين ، وحصنتها بالقلاع المنيعة . وشيدت فيها قصرا ، يُبلى الزمان ، وتفرق منه الخطوب . ولم يكفنى أن جعلته ضخما فخما ؛ بل جملته وزينته ، وحليته بالذهب ، وجعلت سقفه من اللازورد ، وأرضه من الرخام البديع . وأبوابه

من النحاس ، ومغاليقها من البرنز . بناء يبقى على الدهر ، ويسخر من الحدثان .

« وأنا اليوم أعلى شأناً ، وأعظم جاها ، بأن أصبحت شريكي فى الملك وقرينى فى العرش . فالزم سيرتى . واتبع سنتى ، فإن عينى ترعاك أينما سرت ، وقلبى يتبعك حيثما نزلت .

« شن على الغربيين حرباً لا هوادة فيها ، ولا ترحم من لم يرحم ، واسق الصحراء الظامئة من دمهم . ولا تأخذك فيهم رأفة أو شفقة . فإنك إن لا تقهرهم يقهروك ، وإن لم تذلهم أذلوك ، ولهم أفواه لا تنطق بحمدك حتى تحس طعم المنون ، فتدرك أنه مر المذاق . ففيم الحرص على حياة قوم لا يعرفون للحياة تقديساً أو كرامة ؟

« إنى أعرفك جباراً لا ترحم نفسك فى الحرب . وتكلفها فوق طاقتها ، ولكن حياتك اليوم حياة أمة ، فلا توردها موارد التهلكة من غير طائل ؛ واعتمد على أعوانك وأنصارك ، فإن فيهم القائد المدرب ، والبطل المجرب . وإن كنت لازلت فى شك من أمر سنوحى ، فقلده قيادة الغارات الشاقة ، وجربه فى المواقف الرهيبة ، فإن حمدت له بلاءه فأكرمه . وإلا فرده

إلينا ؛ فإن لأبيه علينا ديناً لا نستطيع وفاءه مهما أكرمنا أسرته وأحسنا إلى ذريته .

« والآلهة ترعاك ، وتسدد خطاك . »

* * *

وهكذا بدأت الحروب الليبية الطاحنة ، فكانت شغلنا الشاغل فى السنين الأخيرة من حياة أميني .. وكانت خطتنا فى الحرب أن نحشد جيوشنا الجرارة ، بعد أوان الحصاد . ففى ذلك الوقت يكثر الزاد ، ويقل العمل فى الحقول . ثم تجىء أشهر الفيضان ، والعمل فيها معطل أيضاً ، فنستطيع أن نتفرغ للغارة . والتنكيل بتلك الوحوش الضارية ، فإذا اقترب الشتاء لم يكن بد من تسريح معظم الجيش ، فلا يبقى سوى قوة متوسطة تحرس التخوم وتدفع العدوان . ولكنها لا تقدم على هجوم عظيم أو غارة بعيدة المدى .

وفى مواسم الهدوء النسبي هذه ، كان الملك الشاب يعود إلى العاصمة ، يسوق الغنائم والأسلاب ؛ ويخلفنى لأتولى القيادة فى تلك الأشهر ، التى ندعوها أشهر الدفاع . كما ندعو الأخرى أشهر الهجوم .

ولقد بلانى الملك سينو فى هذه الحرب ، وامتحننى أقسى امتحان . فإن وصية والده قد صادفت هوىً فى فؤاده . فلم يكن هنالك خطر داهم أو مرام وعر إلا دعيت أن أقود كتيبتى إليه ، ويخيل لى أنى استطعت أن أكتسب استحسانه ، وإن لم أوفق لاكتساب عطفه ورضاه . . . إلى أن حل الشتاء الرابع والأخير من هذه الحرب الضروس فارتكبت عن نية وعمد ذلك الذنب ، الذى أحفظ الملك الشاب وأغضبه ، واضطرنى لأن أغادر مصر إلى أرض (الرطين) .

فى الشتاء الرابع كان العدو فى حالة من التضعضع والإعياء بحيث لم يكن يجرؤ على الاقتراب منا ، والدنو من معسكرنا . وكانت طلائع الأمور تشير إلى أنه قد يعود قريباً إلى خيامه فى قلب الصحراء . وضجرت أنا وأفراد الكتيبة من هذا المجهود الذى اضطررنا إليه . وحان الوقت الذى يجىء فيه الجيش الكامل ، وعلى رأسه الملك الشاب ؛ ولم أرد أن يجىء فيرانا لم نفعل شيئاً . فجمعت حولى رؤساء الكتيبة ، وقلت لهم : «هذا الربيع قد أظلنا ولم نفعل شيئاً نحمد عليه ، أيرضيكم حين يأتى الملك ، أن نقول له إننا كنا ننتظرك بفارغ الصبر ؟ . فقال

الجميع إن هذا لا يرضيهم ، فسألتهم : ماذا تقولون فى غارة شعواء نسطو بها على الأوطان البعيدة للطحين ، ولا نعود إلا ومعنا أدلة تنطق بأننا لم نقض الشتاء عبثاً ؟ . وكأنى بهذا الاقتراح قد أزحت عن أفئدتهم همًّا وكربا . وبعثت فيهم مرحاً ونشاطاً عجيبا.

فى ذلك الربيع شننا على الليبيين غارات سيتحدث بهولها أبناؤهم وأحفادهم على مدى السنين . وقد جمعنا من أسلابهم ما يزيد على ما جمعه الجيش بكامل عدده وكتائبه . وبينما نحن فى أوج النصر ، وقد جلست فى خيمتى أشرب قدحا من الجعة وقت المساء إذا غبار يتطاير ، ثم يبدو من تحته طائفة من رجالى ومعهم سبايا يتعثرون بأذيالهن ، فاشتد سخطى على قائد تلك الجماعة . لأنى قد أصدرت أمراً صريحا بألا يشغلوا أنفسهم بجمع السبايا . . وهممت أن أنزل العقاب بذلك القائد ، ولكنى نظرت فإذا فى مقدمة السبايا وجه أعرفه ؛ وهو وجه الأميرة بتسى ، لم تزده السنين إلا حسناً وفتنة . . .

٩

ثم انقضت أيام وليال عذبة . . مرت سراعاً فلا أعرف ما عدتها .

وأصبحت ذات يوم ، فإذا الأنباء تترامى إلىّ بأن الجيش الجرار يقترب ، وعلى رأسه الملك الجبار سينوسرت .

لا بد مما ليس منه بد ؛ وقد حلت الساعة التى لا مهرب منها ، ولا مندوحة من أن تعود بتسى إلى قومها ، جالباً على ذلك من سخط المليك ما كان جالباً .

فى الأيام الأخيرة كنت فى شغل عن التفكير فى الجيش ، وقائده ذى المقام الجليل . واليوم لابد لى أن أبادر ، قبل فوات الوقت ، فأضع الأميرة حيث لا تصل إليها تلك الأيدى الملكية الجبارة .

ولم أرد أن أكل هذا الأمر إلى أحد . فنهضت فى جنح الليل ، وقد هدأ المعسكر ، ونامت الكتيبة إلا الحرس الساهر ، وقد تسللت والأميرة فى هدوء وخفاء ، وغادرت المعسكر دون أن يحس خروجنا أحد . وقطعنا الليل كله نسير سيراً حثيثاً ونحن نسعى مع النجوم نحو الغرب . حتى أبلغت الأميرة ووصيفاتها المكان الأمين . ورجعت أدراجى واجماً كيئباً . . .

لم نلبث أن أظلنا الجيش الأعظم ، واتخذت كتيبتى مكانها المختار . وكان مكانى غير بعيد من معسكر الملك سينو نفسه . . إنه من غير شك قد علم بما حدث . ولكنه أخفى ضميره عنى ،

فلم أحس منه شيئاً : سوى ما ألفته من فتور وازورار ،وتجهم وإعراض .

ولكنه لم يكد يقضى بضعة أيام ، حتى بادر بقيادة حملة قوية : وسار على رأسها ، واتخذ رجالها من صفوة الجند . ولم يرض أن أصاحبه . بل طلب إلى أن أراقب المعسكر حتى يعود. كان هذا العمل حمقاً ينطوى على الرعونة والعبث ، وهو مخالف لأبسط مبادئ العقل ، ولوصية الملك الشيخ أمينى . إن حياة سينوسرت ليست ملكاً له حتى يعرضها لخطر غارة يشنها على عدو جرىء يائس من الحياة .

ولكن الملك عاد من حملته مظفراً ، يقود مئات الأسرى ، وهى تحمل أكداساً من الغنائم والأسلاب . ثم أعاد الكرة مراراً . وكان يرسل الطلائع يوماً للكشف عن مواقع العدو ، ويشن فى اليوم التالى غارة خاطفة ، فيعود بالأسرى وبالغنائم وسرت فى المعسكر أنباء بأن الملك الشاب يريد أن يفرغ من حرب الليبيين بسرعة لكى يعود إلى العاصمة ويبقى إلى جانب الملك الشيخ أمينى .

ثم لم تلبث سحب الشك أن انحسرت عن ضياء اليقين ،

إذ وصلت إلى يدى رقعة من صديقى يونس يقول فيها : « إن الملك أمينى قد ارتقى إلى السماء واتصل بالشمس، وذهبت روحه إلى باريها ، إن القصر يغشاه الصمت والوجوم . والقلوب مفعمة أسى وحزناً . وقد أغلق البابان الكبيران ، ورجال القصر جميعاً جلوس يظلهم الحزن العميق، ورءوسهم على ركبهم. فدبر أمرك، واكتسب رضى الإله الطيب سينوسرت ، ولا تدع الأهواء تحملك على أن ترتكب حماقة من الحماقات . »

فواهاً ليونس ، ما أطيب نفسه ! إنه لا يدرى أى صدع كبير قد خيل لى فى تلك الساعة أنه بات يفصل بينى وبين مليكى . ولا يعلم أن مصر كلها ستكون منذ الساعة أضيق من أن تحتوينى ؛ وأن لا بد لى أن أجعل بينى وبين سينوسرت فيافى وأقطاراً وصخراً ورمالا ، حتى يأذن الإله فيصفو قلبه ، ويشملنى عفوه ، إن كان هذا ممكناً .

أجل فى تلك اللحظة ، التى طالعت فيها رسالة يونس ، صح عزمى على أن أغادر القطر المصرى كله ، وأن ألتمس فى الأرض الفسيحه مضطربا ومجالا . لقد ولّى الحب وغربت شمسه. وخلفتني فى حالك الظلام . وقضى الملك الجليل ، والعاهل الجبار

والركن الذى كنت آوى إليه . والسقف الذى كان يظلنى ، ذهب ذلك النسيم المنعش . وذلك الروح الذى كان يبعث فينا الأمن والطمأنينة . ففيم بقائى بعده ؟ فى ديار لا تلبث الوجوه فيها أن تتجهم لى ، أو تزور عنى ؛ والقلوب أن تمتلىء حقداً وموجدة ؟ . فيم بقاء الغصن بعد أن تحطم الجذع ، وما الخير فى صرح تهدم ركنه الركين وانهار عمده المتين ! لقد اندك صرح سعادتى فى مصر . ولم يبق إلا أن أتناول أنقاضه لأبنى بها صرحاً جديداً فى أرض غير الأرض ، وناس غير الناس .

وهكذا ألفيت نفسى أسعى متخفياً نحو الجنوب، كأنى سائر على غير هدى، فى ضوء قمر لم يطلع إلا متأخراً فى الأفق الشرقى كأنه قرص من النحاس يعلوه الصدأ .

هكذا بدأت رحلتى إلى بلاد الشام (أرض الرطين) . . والذى أعرفه من نفسى أننى رجل لا أقدم على أمر إلا بعد روية وتفكير ، وتأمل وتدبر . ومع ذلك فإنى إذا حاولت الآن أن أسأل نفسى ، لماذا اتخذت هذا القرار الخطير — ولعله أخطر قرار اتخذته فى حياتى ، وهل صدرت فيه عن عقل وروية ؟ فإننى لا أستطيع أن أرد على سؤالى بنعم . ولعل حقيقة الأمر أنى

لم أتخذ قراراً. بل كنت أتحرك كأنى فى حلم ، وأسعى كما يسعى النائم ، تدفعه رؤيا قوية عنيفة . أو كأنى نفس من الريح يتحرك أو ماء يندفع ، وهو لا يدرى ماذا يحركه ويدفعه .

لقد حز فى نفسى بعد ذلك أن علمت أن الإله المحبوب سينوسرت ، لم يكن فى حقيقة الأمر حاقداً على ولا ناقماً ، ولم يكن يبغضنى ويحقرنى . ولكن الوهم سول لى هذا كله . وإنما الأمر الذى أحفظه منى حقاً هو هذا الهرب العجيب ، من غير سبب ، فى وقت تشتد فيه الحاجة إلى خدمة المخلصين . . ذلك هو الأمر الذى أغضبه حقاً . والذى قضيت السنين الطوال أسعى فى الاعتذار منه ، وإزالة الآثار التى خلفها فى نفس مليكى الإله الطيب سينو ، حتى صفح عنى وأذن لى بالعودة إلى وطنى .

فاعجب معى أيها القارئ ، وتأمل كم نعانى من الخيال وكم تذهب سعادتنا ضحية الأوهام !

١٠

إن هذا الفصل الأخير من حياتى هو أقصرها وأطولها . فهو أقصرها لأنى أستطيع أن ألخصه فى كلمتين : هاجرت إلى الشام

ثم عدت إلى مصر . وهى أطولها ؛ لأنى بين هاتين الجملتين قد قطعت مع الشمس خمساً وعشرين مرحلة كاملة .

وقصة هذه الهجرة معروفة للناس جميعاً ، فلا حاجة بى إلى الإطالة فى سردها . فالكل يعرف كيف انحدرت نحو الجنوب من الميدان الليبي ؛ حتى وصلت إلى خير مكان يعبر منه النيل ، بالقرب من « الجميزة » ، حيث للنهر فرعان ، بينهما جزيرة « صنفرو » وكيف استطعت أن أعبر إلى الجزيرة ، حيث قضيت الليل فى مزرعة . ثم قمت مبكراً فعبرت الفرع الشرقى فى زورق محطم لا دفة له ولا شراع . ولكن ريحاً غربية دفعتنى حتى أبلغتنى الضفة الشرقية . ثم قصدت إلى الجبل الأحمر ، فجعلته عن يمينى ، وكيف انحدرت بعد ذلك إلى الشمال ماراً بعين شمس حتى بلغت السور العظيم ، المسمى سور الأمير ، الذى أنشأه أمينى ليرد به البدو عن الوادى . وكيف انتظرت حتى أظلنى ظلام الليل قبل أن اجتزت هذا الحصن خوفاً من أن يرانى الحرس . . . وكيف قاسيت ألم الجوع وأنا إلى بجانب البحيرات المرة ، حيث الماء الغزير ، الذى لا يشفى الأوام . وهنالك حدق الموت فى وجهى من غير أدنى شك ، لولا أن

أنجدنى شيخ من البدو أطعمنى وسقانى ، وأذهب عنى الوحشة.

وبعد ذلك مضت أيام وليالى طويت فيها الصحراء والفيافى ، حتى وصلت إلى أرض الشام . وهناك لقيت حفاوة وإكراما يعجز الوصف عن أن يحيط بهما .

إن أمراء الشام كثيراً ما كانوا يفدون إلى بلاط الملك أمينى ، يحملون الهدايا والهبات ، وكثيراً ما كنت أكلف بمصاحبتهم والسهر على راحتهم . لذلك كنت أؤمل أن يكرموا وفادتى ، وأن تطيب لى الإقامة فى ديارهم . ولكن الذى لقيته من برهم وعطفهم كان فوق كل وصف .

ولقد ظللت أنتقل فى ربوعهم حتى بلغت بيلوس ، وصعدت منها شرقاً وسط الجبال الشاهقة ، إلى أن بلغت القطر الشرقى ، ثم انحدرت مرة أخرى إلى الجنوب . وأنا أصادف فى كل مكان نزلته حفاوة وجودا ، وإلحاحا من كل أمير أن أنزل عنده . وأن أشاطره الملك ، وأتولى رئاسة مقاطعة عظيمة فى أرضه إلى أن نزلت أرض الشام الجنوبية وهى أقرب الأقطار إلى مصر . هناك تلقانى الأمير ننشى بن آمو ، وبالغ فى إكرامى والاحتفاء بى ، وقال لى : « إنك هنا فى خير مكان يلائمك فأقم معى ،

وشاطرنى الملك . ستجد فى هذه الأرض كثيراً من المصريين ، وستصغى إلى لغتك يتخاطب بها ، فتزول عنك وحشة الغربة ، ومن هذه الأرض يمر الرسل من غير انقطاع بين مصر وبلاد الشام ، فتحس الصلة الدائمة بينك وبين وطنك بالتحدث إلى أولئك الرسل ، وبتحميلهم ما شئت من الرسائل إلى قومك وأصدقائك . فهل اقتنعت . ؟ »

قلت : « كدت أن أقتنع . »

قال : « إذن سأقطعك ما تشاء من أرضى . وإن رغبت فدونك هذه المقاطعة العظيمة (ياع) ليس فى القطر أحسن منها ، فى نجادها ما شئت من تين ومن كرم ، ووهادها تفيض ماء وخمرا . زيتها وافر ، وعسلها غزير ، وفيها من كل الثمار ، وبها من حقول البر والشعير مالا يبلغ مداه البصر . وماشيتها لا تعد ولا تحصى ، ففيم التردد ؟ » .

قلت : « قبلت هديتك مع جزيل الحمد ووافر الثناء ! »

وهكذا أصبحت أميراً من أمراء الشام ، وقد زوجنى ننشى من كبرى بناته ، وأنزلنى فى أحسن قصوره ، ثم ولانى قيادة جيشه ، واستطعت أن أنهض بهذا العبء بما فيه وفاء لما غمرنى

به من الهبات والنعم ، فلقد أخضعت عدداً كبيراً من قبائل البدو وأجليتهم عن مراعيهم ومياههم . واستوليت على ديارهم وربوعهم . وعرفني القريب والبعيد منهم . فالتزموا الهدوء ، ورضوا بالانزواء فى فيافيهم .

وهكذا انقضت السنون تباعا . ولكن حنينى إلى مصر لا ينقضى . وكانت الرسل تفد من القطر الكريم إذا أقبل الربيع ، ثم تعود إلى مصر إذا ولى الخريف ، وكلما مر رسول أقام لدى أياما ، ونقل إلى الحديث عن أهلى وأصدقائى ، وعن الملك الكريم المتربع على عرش مصر ، والذى لا يزال ناقماً على هربى وكنت أحمل كل رسول تحيتى إلى أهلى وأصدقائى ، وأريه كيف أقضى حياتى فى الغربة فى رفع ذكر مصر ، وإعلاء كلمة مليكها الجليل. لعل شيئاً من هذا أن يصل إلى مسامع الإله الكريم سينوسرت ، فيرد الشريد إلى وطنه ، ويعيد الطائر إلى وكره.

وحدث مرة أن كان لدى عدد كبير من الرسل فى طريقهم إلى الشمال ، وفى مساء ذلك اليوم كنا جميعاً جلوسا فى صحبة الأمير ننشى ، وفى المجلس عصبة من الأعراب ، وبينهم فتى جرىء لم أكن أعرفه يسمى شهيب . لم يكد عقد المجلس أن

ينتظم ، والأقداح تدار على الحضور ، حتى أحسست من شهيب هذا ميلا لأن يتحدانى ويستفزنى . . وجرى الحديث عن مصر وملوكها ، فصاح شهيب : « لقد كان ملككم أمينى رجلاً عظيماً قوى الشكيمة شديدالبأس. أماخلفه فليس بكفء! »

فقلت من فورى : « أجل كان أمينى رجلا عظيماً لأن سياطه قطعت جلدك وجلد الأجلاف من قومك . ولكن حذار فإن لسينوسرت أيضاً سوطاً أشد قطعاً للجلود ، وسهامه النافذة أسرع من الريح إلى اختراق قلوب الجاهدين الكافرين . . فهو البطل العديم النظير ، لا ساعد أشد من ساعده ، ولا سهم أنفذ من سهمه؛ ولا رمح أشد بطشا من رمحه . سل عنه الغربيين كيف مزقهم وبدد شملهم ، وأطعمهم الصاب ، ودس أنوفهم فى التراب ، سل عنه الماتوى والواوات ، كيف استرقهم واستعبدهم فخروا له ساجدين . ثم سل عنه أيها الفتى النزق ، الذى لم يولد إلا أمس ، سل عنه أقاربك من الأعراب ، لتعلم أنه خلق لسحق سكان الرمال ، ولكى يجعلهم مثل الرمال ذلا وتبددا. سل عنه أيها المسكين لتعلم أنه البطل الذى لا يدركه التعب ، ولا يعرف طعم الغمض . . . هو النار المحرقة لأعدائه والظل الظليل لمن

جاءه خاضعاً مستكينا ، فاختر لنفسك أيها البدوي ما يحلو . . »

ذلك ما فهت به ؛ واستطعت أن أسكن به غضبى ، وأن أطرب الرسل الجالسين معى . أما البدوى وعصبته ، فلم يرق لهم كلامى ، وخرجوا جميعا مغضبين .

وفى صباح اليوم التالى أقبل علىّ فتى وسيم ، وقال : «إنى رسول الأمير شهيب ، وهو زعيم قبيلة ، ورئيس عصبة . ولم ترقه العبارات التى فهت بها أمس ، وقد أرسلنى لأدعوك إلى منازلته ، فاما أن تنتصر فتفوز بزعامة قبيلته ، وتستولى على أرضه ، وإما أن يفوز عليك فتفقد كل شىء . »

قلت : « حييت أيها الرسول . عد إلى أميرك هذا وقل له إنى ما أردت به شراً ، ولم أقل له هجراً . ولكنه اعتدى على مليكى ، فلم يكن بد من أن أعرفه قدره ، مابى رغبة إلى القائه ومنازلته . ولكن إذا كان عزمه قد صح على القتال ، فليأت غداً فى صحبه ، وسأقابله ومعى صحبى ، شهوداً عدولا ، على أنى سأحاربه حرباً طاهرة خالية من كل غش وخداع . قل له يتدجج بالسلاح فإن سهامى تخترق كل درع . »

كان لشهيب فى أرض (الرطين) شهرة واسعة . وكان

أصدقائى يخشون على من فتكه ، فدعوت إله الحرب أن يقف إلى جانبى . وقضيت شطراً من الليل أمتحن قوسى وأعجم سهامى ، ولقيته فى الصباح التالى ، فتركته يرمى سهامه ، سهماً سهماً ، فإذا كل سهم يحيد عنى دون أن يمسنى بسوء . فلما استنفد ما فى جعبته الأولى ، ومد يده إلى الثانية ، أرسلت إلى نحره سهماً نافذ النصل ، فخر صريعاً على وجهه . فتقدمت وأجهزت عليه بفأسه الذى أعدها لقتلى .

ثم ركعت على ركبتى ورفعت صلاتى إلى منث إله الحرب. وارتفع عويل الأسيويين وصياحهم ، وأقبل ننشى بن آمو فعانقنى . . . ثم جمعت الأسلاب والغنائم ، وجاء رؤساء قبيلته فأبدوا خضوعهم ، ونادوا بى رئيساً عليهم . وبذلك اتسعت ضياعى ، وازدادت ممتلكاتى .

وكاد الرسل أن يطيروا سروراً بما شهدوا ، وما أشك فى أنهم نقلوا أنباء هذه الحادثة إلى مصر ، ولم تزل تتناقلها الأفواه حتى بلغت المسامع الملكية ، فأتاحت لصديقى يونس فرصة بأن يتقدم إلى الملك الجليل ، ويلتمس منه أن يصفح عنى ، وأن يردنى إلى الوطن ، لكى أرى البابين الكبيرين مرة أخرى ، وأمتع نظرى

برؤيته ، ورؤية سيدتى الجليلة كريمة أمينى ، وزوج الإله الكريم سينوسرت ، قبل أن تدركنى المنية وأوارى فى تراب غريب.

لم ألبث بعد ذلك طويلا ، حتى تسلمت الأمر الملكى التالى:

« من سينوسرت بن رع ، ملك مصر العليا والسفلى ، مجدد الحياة ، هورس، تحرسه الإلهتان ربتا التاج ، واهب الحياة ، الخالد مدى الدهر .

«أمراً ملكياً إلى الوزير سنوحى ؛ انظر ويحك ، هذا أمر الملك إليك ، لكى تبادر بتنفيذه . إنك غادرت أرض مصر ، وسعيت بقدميك من الدلتا إلى أرض الشام ، ولم تزل تنتقل من أرض إلى أرض ، فعلت هذا بوحى رأيك ومحض إرادتك . ماذا ارتكبت من الإثم ، حتى تلوذ بالفرار ؟ إنك لم تطعن ولم تلعن ، ولم تنطق بفاحشة ، ولم تتهم بوشاية أو نميمة ، ولم ترفع صوتك فى مجلس الرؤساء بما يستدعى لومك ، وإنما هو الوهم الذى صور لك تلك الهجرة ، ودفعك إلى ذلك الفرار .

« إن الملكة الكريمة فى أوج سمائها لا تزال تزين القصر ، وترفل فى الصحة والسعادة . وتشاطرى ملك البلاد . وأطفالها قد كبروا واتخذوا مكانهم من حجرة الملك ، والملكة والأمراء

على استعداد أن يجزلوا لك الهدايا ، ويغدقوا عليك الهبات . هلم . فعد إلى مصر ، لكى ترى البلاط الذى نشأت فيه ، وتقبل التراب بين البابين الكبيرين ، وتخالط الحجاب والوزراء مرة أخرى.

« أماترى أنك قد تقدمت بك السن ، وولى عنك الشباب ، وجدير بك أن تفكر فى اليوم الذى تستقبلك فيه الأرواح الكريمة ، وواجب أن تعد لهذا اليوم دفناً كريماً ، وحنوطاً طاهراً . يومئذ يعد لك الكتان من نسج تايت (إله النسيج) والزيت من شجر الأرز . وتدفن فى حفل عظيم ، وقد وضع جسدك فى تابوت من الذهب ورأسه من اللازورد . وقد صيغ غطاء التابوت فى صورة السماء . ثم تحمل على الدراجة إلى مثواك ، تجرك الثيرة ؛ والمنشدون يرتلون الأناشيد أمامك ، وعلى باب قبرك يرقصون رقصة الخلود ، ثم تذبح الذبائح ، وتقرب القرابين على مذبحك ؛ ولقبرك أعمدة من الرخام الأبيض ، قد أقيمت وسط المقابر الملكية . . . فعد إلى أرض الوطن ، ولا تسلم جسدك إلى أرض غريبة ، تواريك فيها أيد أسيوية . بعد أن تكفن فى غطاء من الأدم . فانهض إذن ويحك وبادر بالعودة إلينا . »

حمل إلى هذه الرسالة صديق صعب بنفسه ، وحمل إلى من يونس تحية ونصيحة بأن أبادر بإطاعة أمر الملك . وما كنت فى حاجة إلى أن أستحث . إن قلبى كاد أن يشق صدرى ويطير فرحا .

ولكنى قبل أن أعد العدة إلى الرحيل . بادرت بإرسال أحد الرسل أمامى يحمل إلى السدة الملكية الكريمة خطاباً من هذا الخادم الخاطئ ، قلت فيه :

« إن خادم القصر سنوحى يبتهل إلى الآلهة جميعاً ، بأن تهب الحياة والسعادة للأنف الكريم . وأن تغمر الملك الجليل والإله الطيب بالهدايا والهبات . وبالدوام الذى لا آخر له ، والأبدية التى لا نهاية لها .

« إن خشية مولاى قد نزلت كل قلب ، وملأت السهل والجبل ؛ وكل ما تشرق عليه الشمس ، خاضع لسطوتك وبأسك . إنك أيها المولى الذى يعلم الغيب ،قد اطلعت على ما يجرى فى نفس هذا الخادم من الأمانى ،وما يتردد فى صدره من الرجاء . وقد عقد الخوف لسانه عن الطلب ، فإذا الإله الكريم يهب ويمنح ويجيب الرجاء الذى لم يجرؤ اللسان أن ينطق به .

« إننى يا مولاى برىء لم أرتكب إثماً . وإخلاصى وولائى تشهد بهما جميع هذه الشعوب والقبائل فى أرض الشام ، والأقطار المحيطة بها .

« وهذا الهرب ، الذى أقدمت عليه ، لم أدبره ولم أقدره . ولم يصدر عن رغبة ونية صادقة ، بل ولست أدرى أى قوة دفعتنى فأبعدتنى عن وطنى . فكنت كأنى فى حلم ؛ أو كأنى رجل من الدلتا يحس نفسه فجأة فى أسوان ، أو رجل من النوبة يرى نفسه وسط مستنقعات الشمال . وأشهد أنى ما هربت عن معصية ؛ وأنى منذ غادرت مصر . ونزلت ديار الغربة ، ما تركت لحظة تمر إلا قضيتها فى الإشادة بذكرك والتسبيح بحمدك. وها أنذا أسلم القيادة التى تقلدتها هنا بأمرك ، وأعود من ساعتى إلى مصر ... »

ذلك ما كتبته فى خطابى ، وختمته بالدعوات الطيبة . ثم قضيت بضعة أيام فى إقليم « ياع » . ووليت أكبر أبنائى شئون بلدى ، وقلدته رئاسة القبائل. وسلمته البساتين والرياض والمزارع والماشية ، وكل شجرة غرستها بيدى وتعهدتها مدى السنين.

ثم ودعت الأهل والأصدقاء ، ووليت وجهى نحو الجنوب ، وأخذت أجد السير ومعى حاشية ضخمة من البدو . فلم تمض

أيام حتى وصلنا « مسالك هورس » على حافة المصب الشرقى للنيل . فتلقانا مدير الإقليم واحتفى بنا . . ثم بادر بارسال نبأ إلى العاصمة بقدومنا ، وقضينا بضعة عشر يوما فى مسالك هورس . ثم جاء مندوب من قبل جلالة الملك ومعه السفن ، تحمل الهدايا للحاشية التى صحبتنى إلى مصر . فتسلم كل منهم هديته وعاد أدراجه . وأقلتنى السفينة حتى رست بى على الشاطئ الممهد فى عاصمة أمينى ، المدينة الخالدة قاهرة القطرين .

فهل حق ما أشاهده أم وهم ؟ . . . بل حق . فهؤلاء رسل الملك قد أقبلوا عند الفجر ، ودعونى إلى الحضرة الملكية الكريمة . سار معى منهم عشرة ، وسبقنا عشرة . وبعد لحظات رأيت التماثيل على البابين الكبيرين ، فركعت ووضعت جبينى على الرمل ، وخفقان قلبى يوشك أن يحطم صدرى . وجاء الحجاب فاقتادونى – وأنا أتعثر فى أذيالى – حتى بلغت البهو الكبير . ثم دفعونى دفعاً نحو الحجرة الملكية الخاصة . . وهنالك رأيت سينوسرت فوق عرشه العظيم ، وسط المحراب الذهبى . فخررت بين يديه ساجداً . ولم أستطع من شدة التأثر أن أنهض ؛ كأنى رجل قد غاب عنه رشده . فتلطف جلالته . وأمر الحاجب بأن ينهضنى ؛ ثم أخذ يغمرنى بعطفه ولطفه ، ويخاطبنى بأرق

لفظ وأعذبه ، فلا أحير جواباً من الدهشة . أجل كان سكوتى الآن دهشة لا عجزاً عن الكلام . فإنى رأيت أمامى سينو غير الذى كنت أعرفه . أبصرت أمامى الرحمة والحب والعطف ممثلة فى إنسان جالس على عرش مصر الخالد الأبدى .

قال جلالته : « ويحك يا سنوحى ؛ ها نحن ننتظر أوبتك هذه السنين الطوال ، ثم تقف بين أيدينا أخيراً فما تحير كلاماً»

ثم ضحك وقال : « لا بأس عليك . وأكبر ظنى أن هذا الطواف والضرب فى مناكب الأرض وسط الشعوب الغريبة ، قد أنساك الكلام المصرى . غير أننا لم نرد أن تطول غربتك حتى توارى تربة غير تربتك ، وتنام فى ثرى غير ثرى مصر . »

وعاد إلى جأشى تلك اللحظة . فقلت : « هيهات يامولاى لمثلى أن ينسى لسانه ، بل لقد نشرته فى ديار الغربة . حيث تعيش شعوب خاضعة لسلطانك ، مخلصة لعرشك . وإنما عقد لسانى هذا المقام الكريم . وهذا العطف الإلهى السامى . »

ولم يمض وقت قليل حتى دخلت الملكة ومعها الأمراء . فقال الإله الطيب مداعباً : « انظروا هذا سنوحى ، غادرنا مصرياً ، وعاد إلينا أسيوياً ؛ وفارقنا مدنياً ، وارتد إلينابدوياً» فضحكت الملكة وضحك معها الأمراء ... ونظروا إلىمتظاهرين

بأنهم لا يصدقون ما تراه أعينهم . فأكد لهم جلالته أنى سنوحى من غير شك . وعند ذلك وقف الأمراء صفاً ، وفى أيديهم آلات موسيقية . وأخذوا ينشدون نشيداً جميلا ، ما شككت فى أنه من تأليف صديقى يونس . وأنه أعده لهذا الموقف . . . وكانت عباراته كما يلى :

« حييت يا رب الجمال والجلال ، يا ذا العمر الطويل الأبدى ! شملتك الآلهة بالرعاية ، وغمرتك بالسعادة !

إن تاج مصر العليا ينحدر من الجنوب ،

وتاج مصر السفلى ، يصعد من الشمال ،

لكى يلتقيا على مفرقك ، فيسعد بعدلك وسلطانك

أنت الذى يلمع الثعبان المقدس على جبينك .

إن رع الإله الأكبر مسرور بك

لأنك أرضيته وشرحت صدره . يا رب القطرين .

مر أيها المولى بأن يرفع الضر عمن مسه ضرك !

وأن ينزع السهم ممن أصابه سهمك !

وانفخ فيه من روحك ، حتى تعود إليه الحياة

هب لنا فى عيدنا هذا روح هذا الأسيوى الشرير !
أجل الأسيوى الذى ولد فى مصر !
إنه ما فر إلا خشية من بأسك
وما غادر الأرض إلا هرباً من سطوتك . .
فأعد إليه المجد والحياة . .
يزل عنه الخوف ؛ ويعد إليه الأمن . »

وعلى أثر هذا النشيد المدهش . قال الجالس على العرش :
« إنه لن يخاف بعد اليوم شراً . ولن يناله مكروه . وسيرقى أسمى المراتب بين الحجاب والوزراء . والآن انطلق يا سنوحى عدواً إلى البيت الذى أعد لك . وعد إلينا نظيفاً نقياً »

وأنا فى غنى عن أن أسر إلى القارئ أنى كنت فى حاجة شديدة إلى إطاعة هذا الأمر الملكى الكريم . . .

* * *

وهكذا يا أبنائى على مدى السنين والحقب ، عاد جدكم سنوحى من غربته . وهذه قصة حياته بين أيديكم . فإذا ذكرتموه فى الزمن المبهم البعيد . فلا تنسوه من صلوات زكية ترفعونها باسمه إلى الآلهة . . .